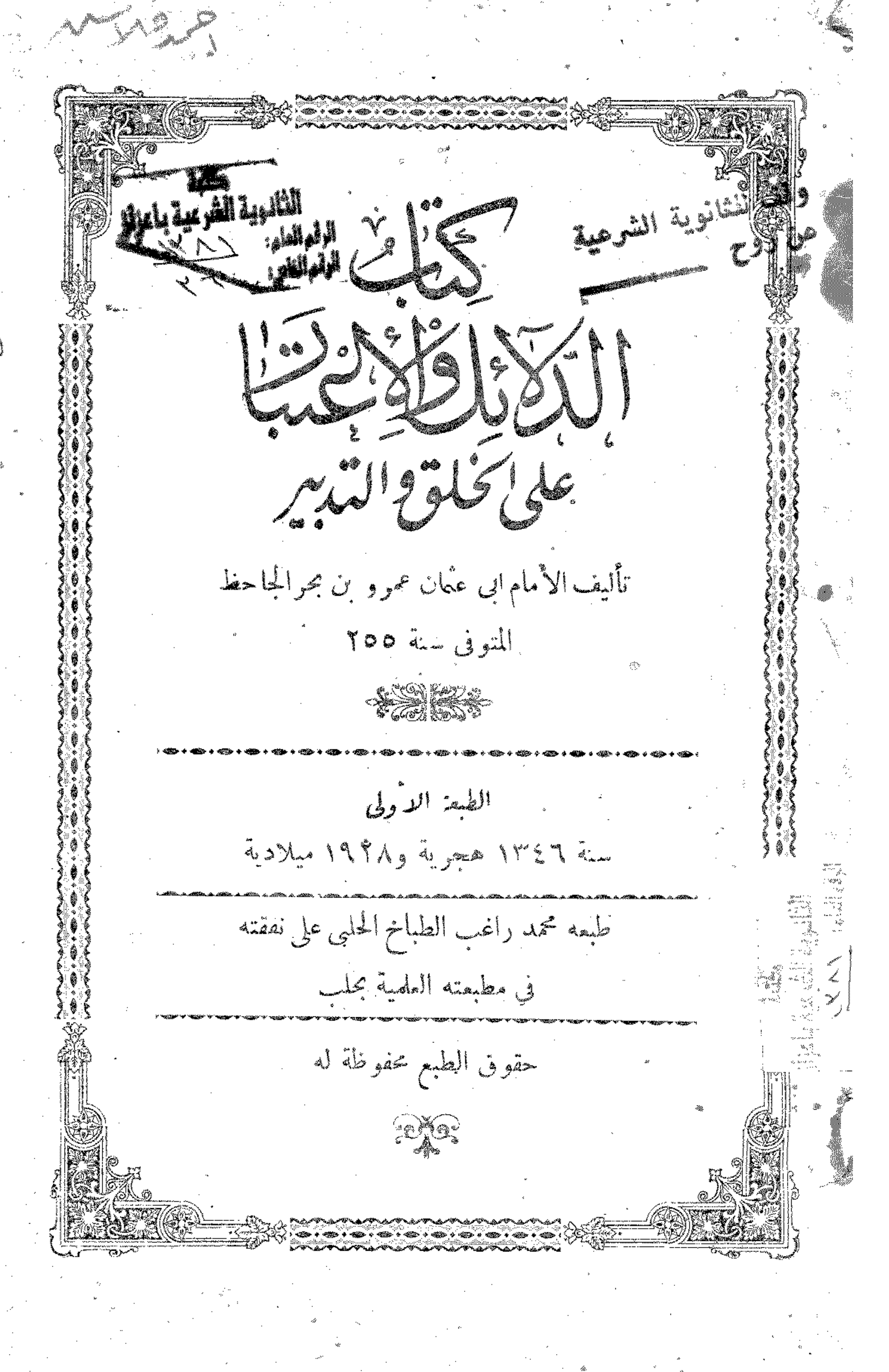


كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير

تأليف الامام ابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٥

الطبعة الاولى

سنة ١٣٤٦ هجرية و١٩٢٨ ميلادية

طبعه محمد راغب الطباخ الحلبي على نفقته

في مطبعته العلمية بحلب



وصلى الله على محمد وآله وعلى جميع انبيائه

قال ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ان ناساً حين جهلوا الأسباب والمعاني وقصروا في الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها خرجوا الى الجحود والتكذيب حتى انكروا خلق الاشياء وزعموا ان كونها بأهمال لاصنعة فيه ولا تقدير فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت اتقن بناء وفرشت احسن فرش واعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والمآرب ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير فجعلوا يسعون فيها محجوبة ابصارهم فلا يبصرون هيئة الدار وما اعد فيها وربما عثر الواحد منهم بالشيء قد وضع موضعه واعد لشأنه وهو جاهل بالمعنى فيه فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها

فهذه حال هذا الصنف في انكارهم ما انكروا من الخلقة وانهم لما غيبت اذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الاشياء صاروا يجولون في هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه في اتقان خلقته وصواب هيئته وربما وقف الواقف منهم على الشيء يجهل سببه والأرب فيه فيسرع الى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والأحالة كالذى اقدمت عليه وجاهرت به المنانية الكفرة واشباههم من اهل الضلال .



فحق على من انعم الله عليه بمعرفته ووفقه لتأمل هذه الخلقة والوقوف على ما في خلقها من لطف التدبير وصواب التقدير بالدلائل القائمة فيها ان لا يقصر في اظهار ما بلغه علمه من ذلك. بل يجهد في نشره واذاعته وايراده على المسامع والاذهان لتقوى دواعي الأيمان وتخيب مكيدة الشيطان في تضليل الوهم محتسباً

للثواب في ذلك واثقا بعون الله تعالى وتأييده اياه .

فقد تكفلنا جميع ما وقفنا عليه من العبر والشواهد على خلق هذا العالم وتأليفه وصواب التدبير فيه وشرح الأسباب والمعاني في ذلك بمبلغ علمنا في كتابنا وتوخينا ايضاح القول فيه وتنويره والأيجاز فيما شرحنا ليسهل فهمه ويقرب مأخذه على الناظر فيه ورجونا ان يكون في ذلك شفاء للشاكر المرتاب وزيادة في يقين الموفق وبالله التوفيق .

فأول العبر بهيئة هذا العالم وتأليف اجزائه ونظمها على ما هي عليه . فأنك اذا تأملت العالم بفكرك وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع عتاده . السماء مرفوعة كالسقف والارض ممدودة كالبساط والنجوم منضودة كالمصابيح والجواهر مخزونة في معادنها كالذخائر وكل شيء منها لشأنه وما يراد به . والانسان كالمالك للبيت المخول لما فيه وضروب النبات مهيأة لمآربه وصنوف الحيوانات مصرّفة في مصالحه ففي هذا دلالة واضحة على ان العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام . وان الخالق له واحد هو الذي الفه ونظم بعضه الى بعض وذلك مما قال فيه الأولون فأحسنوا القول ولكنا ننصرف الى فن آخر من دقايق الخلقة فنبين عما فيه من الصواب والحكمة مع النظام والملائمة وفي ذلك توبيخ القائلين بالأهمال والقائلين بأصلين متضادين (١) لان الأهمال لا يأتي بالصواب والتضاد لا يأتي بالنضاير

(فكر في لون هذه السماء) وما فيها من صواب التدبير فأن هذا اللون اشد الالوان موافقة للابصار وتقوية لها حتى ان من صفات الأطباء لمن اصابه شيء اضر ببصره ادمان النظر الى الخضرة ما قرب منها الى السواد . وقد وصف الحذاق منهم لمن كل بصره الأطلاع في اجانة خضراء مملوءة ماء .

(١) الأصلان المتضادان هما الذكر والانثى والحار والبارد او الحركة والسكون او الجنة والنار او العلم واللوح او طريقا الاعلي والاسفل اهـ من هامش الاصل

فانظر كيف جعل هذا الاديم اديم السماء بهذا اللون الاخضر الى السواد لتمسك الابصار المتقلبة عليه فلا ينكى فيها بطول مباشرتها له فصار هذا الذى ادركه الناس بعد التفكر والتجارب يوجد مفروغاً منه فى الخلقة .

(فكر فى طلوع الشمس وغروبها) لاقامة دولتى النهار والليل فلو لا طلوعها لبطل امر العالم كله فكيف كان الناس يسعون في حوائجهم ومعايشهم ويتصرفون في امورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بالذة العيش مع فقدهم لذة النور وروحه . فالارب فى طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الاطناب فيه . ولكن تأمل المنفعة فى غروبها فأنه لولا غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار مع عظم حاجتهم الى الهدو لراحة ابدانهم وجموم حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام وتنفيذ الغذاء الى الاعضاء كالذى تصف كتب الطب من ذلك . ثم كان الحرص سيحملهم الى مداومة العمل ومطاولته على ما تعظم نكايته في ابدانهم فأن كثيراً من الناس لولا جثوم هذا الليل بظلمته عليهم لما هدؤا ولا قروا حرصاً على الكسب والجمع ثم كانت الارض ستحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت بتدبير الله تطلع وقتاً وتغيب وقتاً بمنزلة سراج يرفع لاهل البيت ملياً ليقضوا حوائجهم ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤا ويقروا فصار الظلمة والنور على تضادهما متعاونين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه .

ثم فكر بعد هذا فى ارتفاع الشمس وانحطاطها لاقامة هذه الأزمنة الاربعة من السنة وما في ذلك من المصلحة ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات فتتولد فيه مواد الثمار ويستكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر وتشتد ابدان الحيوان وتقوى الافعال الطبيعية . وفى الربيع تتحرك الطبايع وتظهر المواد

المتولدة في الشتاء فيطلع النبات وينوّر الشجر ويهيج الحيوان للسفاد .
وفي الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار وتتحلل فضول الابدان ويجف وجه الارض فيتهيأ للبناء والاعمال . وفي الخريف يصفو الهواء فترفع الامراض وتصح الابدان ويمتد الليل فيمكن فيه بعض الاعمال الطويلة الى مصالح اخرى لو تقصّي ذكرها طال الكلام فيها .
(فكر في تنقل الشمس) في هذه البروج لاقامة دور السنة وما في ذلك من التدبير فهذا الدور هو الذى يضم الازمنة الاربعة من الشتاء والربيع والصيف والخريف ويستوفيها على التمام لانه فى هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار وتنتهى الى غاياتها من النضج والصلاح ثم يعود فيستأنف النشو والنمو . فا احسن ما قال الاولون الزمان مقدار الحركة الا ترى ان السنة مقدار مسير الشمس من الحمل الى الحمل فبالسنة واجزائها يكال الزمان وتوزن الاوقات من لدن خلق الله العالم الى كل وقت وعصر وبها يحسب الناس الاعمار والاوقات الموقتة للديون والاجارات والمعاملات وغير ذلك من امورهم وبمسير الشمس تكمل السنة ويقوم حساب الزمان على الصحة .
[فاما مسير القمر] ففيه دلالة واضحة جليلة تستعمله العامة فى معرفة الشهور ولا يقوم عليه حساب السنة لان دوره لا يستوي فى الازمنة الاربعة ونشو الثمار وتصرمها ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنيها وصار الشهر من شهور القمر يتنقل فيكون مرة فى الشتاء ومرة فى الصيف .
(تأمل) شروق الشمس على العالم كيف دبر ان يكون فانها لو كانت تبزغ فى موضع من السماء فتقف فيه لا تعدوه لما وصل شعاعها الى كثير من الجبال لأن الجبال والجدران كانت تحجبها عنها فصارت بتدبير الله تطلع اول النهار من

المشرق فتشرق على ما قابلها من المغرب ثم لا تزال تدور وتغشي جهة بعد جهة حتى تنتهي الى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في اول النهار فلا يبقى موضع من المواضع الا اخذ بقسط من الارب فيها .

(فكر في مقادير الليل والنهار) كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق فصار منتهى كل واحد منهما اذا امتد خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك ارأيت لو كان النهار مقدار مائة ساعة او مائتين الم يكن في ذلك بوار ما على الارض من حيوان او نبات .

اما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر طول هذه المدة من العمل ولا البهائم كانت تمسك عن الرعي لو دام لها ضوء النهار ولا الانسان كان يفتر عن العمل والحركة فكان ذلك ينهكها اجمع ويؤديها الى التلف .

واما النبات فكان يدوم عليه حر النهار ووهج الشمس حتى يحترق ويجف وكذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق اصناف الحيوان عن الحركة والتصرف وطلب المعاش حتى تموت جوعاً وتخمد الحرارة الطبيعية من النبات حتى يعفن ويفسد كالذي نراه يحدث على النبات اذا كان في موضع لا تقع عليه الشمس

(فكر في انارة القمر) والكواكب في ظلمة الليل والأرب في ذلك فأنه مع الحاجة الى الظلمة ولهدو الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح في ان يكون في الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها فلا يمكن فيه شيء من العمل لأنه ربما احتاج الناس الى العمل لضيق الوقت عليهم في بعض الأعمال او لشدة الحر وافراطه بالنهار فيعمل في ضوء القمر اعمالٌ شتى كحرث الأرض وضرب اللبن وقطع الحطب وما اشبه ذلك فجعل ضوء القمر بالليل معونة للناس على هذه الأعمال اذا احتاجوا الى ذلك وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض ونقص مع ذلك عن نور الشمس وضيائها لكيلا ينبسط الناس في العمل بالليل فيه انبساطهم بالنهار ويتمنعوا من الهدو والقرار فينهكهم ذلك

وجعل في الكواكب جزءً يسيراً من الضوء ليسد مسداً اذا لم يكن قمر ويمكن فيه بعض الحركة اذا حدثت ضرورة كما قد يحدث على المرء من الحوادث التي يحتاج معها الى النجاة والسعي في جوف الليل المظلم فأن لم يكن شيء من الضوء يهتدي به لم يستطع المرء ان يزول عن مكانه. فتأمل لطف الحكمة في هذا التقدير حيث جعلت الظلمة دولة ومدة للحاجة اليها وجعل خلالها شيء من النور للمآرب التي وصفنا ثم في النجوم مآرب اخرى فأن فيها علامات ودلالات على اوقات كثيرة من الأعمال كالزراعة والغراسة والسفر في البر والبحر واشياء مما تحدث في الأزمنة من الرياح والحر والبرد وبهذا يهتدي الساري في ظلمة الليل ويقطع القفار الموحشة واللجج الهائلة مع ما في ترددها في هذه السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة وفي تصريف القمر خاصة في مهله ومحاقه وزيادته ونقصانه وكسوفه من التنبيه على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصريف لاصلاح العالم .

ومما يدل عليه القياس ان هذه المصابيح تسير اسرع السير واحثه وذلك انها تدور في كل يوم وليلة دوراً تاماً حتى ترجع الى مراجعها فتطلع منها فلولا سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة في مقدار اربعة وعشرين ساعة . افرأيت لو كانت الشمس والنجوم بالقرب منا حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه الم تكن تستخطف الابصار بوهجها وشعاعها كالذى يحدث احيانا من البروق اذا توالت واضطربت في الجو وكذلك ايضاً لو ان ناساً كانوا في قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم دوراناً حثيثاً لحارت ابصارهم حتى يخروا لوجوههم فانظر كيف قدر ان يكون مسيرها في البعد البعيد لكيلا تضر الابصار وينكأ فيها النور وبأسرع السرعة لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة من سيرها .

(فكر في هذه النجوم) التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها كمثل

الثريا والجوزاء والشعري فأنها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد وتحتجب وقتاً واحداً لم يكن لكل واحد منها على حياله دلالات يعرفها الناس ويهتدون بها لبعض امورهم كمعرفتهم الآن بما يكون في طلوع الثريا والجوزاء اذا طلعت واحتجابها اذا احتجبت . فصار ظهور كل واحد منهما واحتجابه في وقت غير وقت الآخر لينتفع الناس بما يدل عليه كل واحد منهما على حدته . فكما جعلت الثريا واشباهها تظهر حيناً وتحتجب حيناً لضروب من المصلحة كذلك جعلت بنات نعش ظاهرة ولا تغيب لضرب آخر من المصلحة فأنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر معاً وذلك انها لا تغيب ولا توارى اصلا فهم ينظرون اليها متى ارادوا ويهتدون بها الى حيث شاؤا وصار الامران جميعا على اختلافهما من جهتين نحو الأرب والمصلحة .

(فكر في النجوم) واختلاف سيرها ففرقة منها لا تديم مراكزها من الفلك ولا تسير الا سيراً ضعيفا مجتمعة . وفرقة مطلقة تنتقل في البروج وتفترق في مسيرها فكل واحد منها يسير بسيرين مختلفين احدهما عام مع الفلك نحو المغرب وآخر خاص لنفسه مع المشرق . وقد شبه الأولون هذه المطلقة بنملة تدب على رحى والرحا تدور ذات اليمين والنملة تدور ذات الشمال فأن النملة في تلك الحال تتحرك حركتين مختلفتين احداهما بنفسها متوجهة امامها والاخرى مستكرهة مع الرحى تجتذبها الى خلفها فليسأل الزاعمون ان النجوم صارت على ما هي عليه بالاهمال ومن غير عمد ما منعها ان تكون كلها راتبةً اوتكون كلها منتقلة فأن الأهمال معنى واحد فكيف صار بحركتين مختلفتين على تقدير ووزن فهذا بيان ان مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد وتدبير وليس بأهمال كما تزعم المعطلة .
فأن قلت ولما صار بعض النجوم راتباً وبعضها منتقلا قلنا انها لو كانت كلها

راتبة لبطلت الدلالات التي تكون من تنقل المتنقلة منها ومصيرها في كل واحد من البروج زماناً محدوداً كما قد يستدل على اشياء مما يحدث في العالم بتنقل الشمس والقمر والنجوم في منازلها ولو كانت كلها متنقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه لأنه انما يقاس مسير المتنقلة بتنقلها في البروج الراتبة كما يقاس سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها .

وجملة القول انها لو كانت بحالة واحدة لاختل نظامها وبطلت المآرب فيها ولساغ لقائل ان يقول ان كينونتها على حال واحدة يوجب عليها الاهمال من الجهة التي وصفنا . ففي اختلاف مسيرها وتصرفها وما في ذلك من الارب والمصلحة ابين دليل على العمد والتدبير فيها .

(فكر) لم صار هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه يدور على العالم هذا الدوران الدائم بهذا التقدير والوزن الا لما في اختلاف النهار والليل وهذه الازمان الاربعة من السنة على الارض وما عليها من اصناف الحيوان والنبات من ضروب المصلحة كالذي بيّنا ولخصنا آنفا وهل يخفى على ذي لب ان هذا تقدير مقدر لصواب وحكمة من مقدر حكيم .

فان قلت ان هذا شيء اتفق ان يكون هكذا فما يمنعك ان تقول هذا في دولاب تراه يدور ليسقي حديقة فيها شجر ونبات فترى كل شيء من آلته مقدراً بعضها تلقاء بعض على ما فيه صلاح تلك الحديقة وما فيها وبماذا كنت تثبت هذا القول لو قلته وما ترى الناس كانوا قائلين لك لو سمعوه منك سوى تسفيه رأيك وتضليل عقلك . افتنكر ان تقول هذا في دولاب خسيس مصنوع بحيلة قصيرة لمصلحة قطعة من الارض انه كان بلا صانع ومقدر وتقدم على ان تقول هذا الدولاب الاعظم المخلوق بحكمة تقصر عنها اذهان البشر لصلاح جميع الارض وما عليها انه شيء اتفق ان يكون بلا

صنعة ولا تقدير لو اعتل هذا الفلك كما تعتل هذه الآلات التي تتخذ لرفع الماء وغيرها ما كان عند الناس من الحيلة في صلاحه ولو تخلفت عنهم مقدار عام او بعض عام كيف تكون حالهم بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء افلا ترى كيف كفى الناس هذه الامور الجليلة التى لم يكن لها فيها عندهم حيلة فصارت تجرى على مجاريها لا تعتل ولا تختل منافعها ومصالحها ولا تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه .

(فكر) فى هذا الحر والبرد وكيف يتعاوران العالم ويتصرفان هذ التصرف فى الزيادة والنقصان والأعتدال لأقامة رسوم هذه الأزمنة الأربعة من السنة ومافيها من المصالح ثم هما بعدُ دباغ الأبدان عليهما بقاؤها وفيهما صلاحها فأنه لولا الحر والبرد وتداولهما الأبدان لفسدت الأبدان وانتكثت قواها وانتقضت في اسرع مدة .

(ثم فكر) في دخول احدهما على الآخر بهذا التدريج والترسل فأنك تجد احدهما ينتقص شيئاً بعد شئ والآخر يتزيد مثل ذلك حتى ينتهى كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان ولو كان دخول احدهما في الآخر مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان واسقمها كما ان امرأ لو خرج من حمام حار الى موضع مفرط البرد لضره ذلك واسقم بدنه فلم كان هذا الترسل في دخول الحر والبرد الا للسلامة من ضرر المفاجاة ولم جري ذلك الأمر على ما فيه السلامة من ضرر المفاجاة لولا تدبير المدبر في ذلك

فأن زعمت ان هذا الترسل في دخول الحر والبرد انما يكون لأبطاء مسير الشمس في ارتفاعها وانحطاطها سألت ايضاً عن العلة في ابطاء مسير الشمس في الارتفاع والانحطاط فأن اعتللت في الابطاء ببعد ما بين المشرقين وسئلت عن العلة في ذلك فلا تزال هذه المسئلة ترتقى معك الى حيث رقيت من هذا القول حتى تستقر

على العمد والتدبير . او لا الحر لما كانت هذه الثمار الجاسية المرة تنضج فتلين وتعذب حتى يتفكه بها رطبة ويابسة ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ ويريع الريع الكثير الذي يتسع للقوت وما يرد في الارض افلا تري ما في الحر والبرد من عظيم الغناء والمنفعة وكلاهما مع عظم غنائه والمنفعة فيه يؤلم الابدان ويمضها فأعتبر بهذا في كثير من الامور التي تمض الناس وتخالف اهوائهم وهي من التدبير الحكيم في مصلحتهم .

فتأمل حكمة الباري في التدبير فى خلق النار على ماهى عليه فأنه لم يكن يصلح ان تكون مبثوثة كالنسيم والماء اذاً كانت تحرق العالم بما فيه ولم يكن بد من ظهورها فى الأحايين لعنايتها فى كثير من المصالح فجعلت كالمخزونة فى الاجسام الحافظة لها تستبعث عند الحاجة اليها فتمسك بالمادة والحطب ما احتيج الى بقائها ثم تخبوا فلا هى تمسك ابداً بالمادة والحطب فتعظم المؤنة فى ذلك ولا هي تظهر مبثوثة فى العالم فتحرق كلما هى عليه بل هى على هيئة و تقدير اجتمع فيه الاستمتاع بمنافعها والسلامة من ضررها .

ثم فى النار خلة اخرى وهي انها مما خص به الانسان دون جميع الحيوان لما فيه من المصلحة فأنه لو فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الخلل فى معاشه .

فأما البهائم فلا تستعمل النار ولا تستمتع بها ولما قدر ان يكون هكذا خلقت للانسان كف واصابع مهيأة لقدح النار واستعمالها ولم تعط البهائم مثل ذلك لكنها اعينت بالصبر على الجفا والخلل فى المعاش لكيلا ينالها من فقد النار ما ينال الانسان .

وانبهك من مصالح النار على خلة صغير قدرها عظيم موقعها وهى هذا المصباح الذي يتخذه الناس فيقضون به حوائجهم ما شاؤا من ليلهم ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف اعمارهم بمنزلة من فى القبور . فمن كان يستطيع ان يكتب او يحفظ او ينسخ فى ظلمة الليل وكيف تكون حال من عرض له وجع فى وقت

من اوقات الليل فاحتاج الى ان يعالج ضمادا او سفوفا او شيئاً مما يستشفي به .
فأما منافع النار فى نضج الأطعمة و دفء الابدان وتجفيف اشياء وتحليل اخرى واشباه هذا فانه اكثر من ان يحصى واظهر من ان يخفي حسبك بهذا النسيم المسمي هواء عبرة وما فيه من المصالح فأنه حياة هذه الابدان والممسك لها من داخل بما تستنشى منه ومن خارج بما يباشر من روحه وفيه تطرد هذه الاصوات فيؤديها من البعد البعيد وهو الحامل لهذه الأرابيح ينقلها من موضع الى موضع الا ترى كيف تأتيك الرائحة من حيث تهب الريح وكذلك الصوت وهو القابل لهذا الحر والبرد اللذين يعتقبان على العالم لصلاحه ومنه هذه الريح الهابة فالريح تروّح عن الاجسام وتزجي السحاب من موضع الى موضع ليعم نفعه وتركه حتى يستكثف فيمطر ويفيضه حتى يستجف فتنفش وتلقح الشجر وتسيّر السفن وتذري الاطعمة وتبرد الماء وتشب النار وتجفف الاشياء الندية. وفي الجملة انها تحي كل ماعلي الارض فانه لولا الريح لذوى النبات وموّت الحيوان ووخمت الأشياء وفسدت . الست تري ركود الريح اذا ركدت كيف يحدث الكرب الذي يكاد يأتي على النفوس وتمرض الاصحاء وتنهك المرضى وتفسد الثمار وتعفن البقول ويعقب الوبا فى الابدان والآفة في الغلات .فى هذا بيان ان هبوب الريح اكثر الأيام من التدبير الحكيم في صلاح هذا الخلق .
وانبئك عن الهواء بخصلة اخري فأن الصوت فيما ذكرت الحكماء اثر يؤثره اصطكاك الأجسام فى الهواء والهواء يؤديه الى المسامع والناس يتكلمون في حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليلهم فلو كان اثر هذا الكلام يبقى في الهواء كما يبقي الكتاب في القراطيس لأمتلأ العالم منه حتي يكربنا ويقدحنا ونحتاج فى تبديله والاستبدال به الى اكثر مما نحتاج اليه فى استبدال القراطيس

لأن الذى يلغى من الكلام ولا يكتب اضعاف مايكتب فجعل الخلاق العليم
هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل كلامنا ريثما يبلغ حاجتنا ثم يمحي فيعود جديداً
نقيا بلا كلفة منا ولا عزم ويحمل ما حملناه ابداً بلا انقطاع .
(فكر فى خلق هذه الارض) على ماهى عليه حين خلقت راتبة راكدة لتكون
وطاء ومستقراً للأشياء ويتمكن الناس والأنعام من السعى عليها فى مآربهم
والجلوس لراحتهم والنوم لهدوهم والأتقان لاعمالهم فأنها لو كانت رجراجة
منكفئة لم يكونوا يستطيعون ان يتقنوا البناء والنجارة والحدادة والصياغة
والحياكة بل كانوا لا يتهنون بالعيش والارض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما
يصيب الناس فى الزلازل على قلة مكثها حتى يصيروا الى ترك منازلهم والهرب عنها.
فأن قلت ولم صارت الارض تزلزل (قلنا) ان الزلزلة وما اشبهها ترهيب
يرهب بها الناس ليرغبوا وينزعوا عن المعاصى وكذلك ماينزل بهم من البلايا
فى ابدانهم واموالهم من نقمة ومصيبة وخط تجري فى التدبير الى مافيه صلاحهم
واستقامتهم ويدخر لهم ان صلحوا من الثواب والعوض فى الآخرة مالا يعدله
شيء من امور الدنيا وربما عجل ذلك فى الدنيا اذا كان فيه صلاح لعامة اوخاصة
ثم ان الارض فى طباعها باردة يابسة وكذلك الحجارة وانما الفرق بينها
وبين الحجارة فضل يبس فى الحجارة افرأيت لو ان اليبس ان افرط على الارض
قليلاً حتى تكون حجراً صلداً أكانت تكون تنبت هذا النبات الذي فيه حياة
الحيوان او كيف كان يمكن فيها حرث او خضرة او بناء فلا ترى كيف نقصت
من يبس الحجارة وجعلت على ماهى عليه من اللين والرخاوة لتتهيأ للاعمال .
ومن التدبير الحكيم في خلقة الارض ان مهب الشمال ارفع من مهب الجنوب
وما كان ذلك الا لتنحدر المياه على وجه الارض فتسقيها وترويها ثم تفيض

الى البحر آخر ذلك فكما يرفع احد جانبي السطح ويخفض الآخر لينحدر الماء عنه ولا يقوم عليه فيفسد كذلك جعل مهب الشمال ارفع من مهب الجنوب ولو لا ذلك لبقي الماء متحيراً على وجه الارض فمنع الناس من اعمالها وقطع الطرق والمسالك.

[انظر الى هذه الجبال] المركومة من الطين والحجارة التى قد يحسبها الغافلون فضلا لا حاجة اليه والمنافع فيها كثيرة فمن ذلك ان الثلج يسقط عليها فيبقى في قلالها لمن يحتاج في القيظ اليه ويذوب ما ذاب منه فتجرى منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الانهار العظام وينبت منها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل . ويكون فيها كهوف ومعاقل للوحش من السباع والعادية وتتخذ فيها الحصون والقلاع المنيعة لتتحرز من العدو وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر وعسى ان يكون فيها خلال اخرى لا يعرفها الا المقدر لها في سابق علمه .

(فكر في هذه المعادن) وما يخرج منهـا من الجواهر المختلفة الالوان كمثل الجص والكلس والجير والجبصين والزرنيخ والزاج والمرتك والتوتيا والفضة والذهب والزبرجد والياقوت والزئبق والنحاس والرصاص والخرز والحجارة وكذلك ما يخرج منها من القار والزفت والموميا والكبريت والنفط وغير ذلك مما يستعمله الناس في مآربهم ومصالحهم وكيف اختلفت طبائعها والوانها واحوالها فمنها ما هو سم قاتل ومنها ما ينفع من السم ويقطعه ومنها ما يقويه ويزيل في فعله فهل يخفى على ذي عقل ان هذه كلها ذخائر ذخرت للأنسان في هذه الأرض ليستخرجها فيستعملها عند حاجته اليها.

(ثم فكر في عزة هذا الذهب) والفضة وقصور حيلة الناس عما حاولوا من صنعتها على حرصهم واجتهادهم في ذلك فانهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا

العلم لكان لا محالة يستظهر ويستفيض فى العالم حتى يكثر الذهب والفضة ويسقط عند الناس فلا تكون لهما قيمة ويبطل الانتفاع بهما فى الشراء والبيع والمعاملات والأتاوة تجبى للسلطان والذخر تذخر للاعقاب وقد اعطى الناس مع هذا صنعة الشبة من النحاس والزجاج من الرمل وما اشبه ذلك مما لا مضرة فيه. فانظر كيف اعطوا ارادتهم فيما لا ضرورة عليهم فيه ومنعوا ذلك فيما كان ضاراً لهم لو نالوه. اخبرنا اناس ممن يزاول المعادن انهم اوغلوا في بعضها فانتهوا الى موضع رأوا فيه امثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد عظيم يجري متصلاً بماء غزير لا يدرك غوره ولا حيلة في عبوره ثم عادوا يطلبونه فلم يقفوا عليه فانصرفوا آسفين. (فكر) فى هذا من تدبير الخالق فأنه اراد جل ثناؤه ان يرى العباد قدرته وسعة خزائنه ليعلموا انه لو شاء ان يمنحهم كالجبال من الفضة لفعل لكن لا صلاح لهم فى ذلك لأنه كان يكون كما ذكرنا من سقوط هذا الجوهر عند الناس وقلة انتفاعهم به واعتبر ذلك بانه قد يظهر الشيء الطريف يحدثه الناس من الأوانى والأمتعة فما دام عزيزاً قليلا فهو نفيس جليل آخذ للثمن فاذا فشا وكثر في ايدي الناس سقط عندهم وخست قيمته وفى هذا مصداق قول القائل ان نفاسة الاشياء من عزتها. (فكر) في كثرة ما خلق الله من هذه الجواهر الاربعة ليتسع الناس بما يحتاج اليه من ذلك فمن ذلك سعة هذه الارض وامتدادها فلولا ذلك كيف كانت تتسع لمساكن الانس ومزارعهم ومراعيهم ومنابت اعشابهم واحطابهم والعقاقير العظيم موقعها منهم والمعادن الجسيم غناؤها عنهم ولعلك تنكر هذه الفلوات الخالية والقفار الموحشة فتقول ما المنفعة فيها أفنسيت انها مستكنّ هذه الوحوش ومحالها ومرعاها ثم فيها متنفس ومضطرب الناس اذا احتاجوا الى الاستبدال باوطانهم فكم من بيداء سملق (١) قد حالت قصوراً وجناناً بانتقال الانسان

---

(١) السملق كجعفر القاع الصفصف اه قاموس

اليها وحلولهم فيها ولولا سعة الأرض وفسحتها لكان الناس كمن كان في حصار ضيق لا يجد مندوحة من وطنه اذا حزبه امر يضطره الى الانتقال عنه وكذلك الماء لولا تدفقه وجريانه في العيون والاودية والانهار لضاق مما يحتاج الناس لشربهم وشرب انعامهم ومواشيهم وسقي زروعهم واشجارهم واصناف غلاتهم وشرب مايرده من الوحش والطير والسباع ويتقلب فيه من الحيتان وذوات الماء. وهكذا الهواء ايضاً لولا كثرته وسعته لاختنق هذا الانام من الدخان والبخار الذي يتبخر فيه ولعجز عما يحول الى الضباب والسحاب اولاً فأولاً .

والنار ايضاً كذلك فأنها وان لم تكن مبثوثة في كل مكان فأنها عتيدة متى احتيج اليها واسعة لكل ما يحتاج اليها منها انها مخزونة في الاجسام للسبب الذي ذكرنا آنفا.

واذكرك من منافع الماء خلالا انت بها عارف وعن عظيم موقعها غافل فأن سوى الامر الجليل المعروف في عنائه في احياء جميع ما على وجه الارض من حيوان او نبات به تمزج الاشربة فتلين وتعتدل وتطيب لشاربيها وبه ترحض الأبدان والأمتعة من الدرن الذي يغشاها وبه يبل التراب ويصلح للاعتمال به. وبه يكف عادية النار اذا اضطرمت واشفى الناس منها على الهلاك والمكروه وبه يسيغ الغاص ماغص به فينجو من الموت وبه يستحم التعب الكال فيجد الراحة في اوصاله الى اشباه هذا من المآرب التي يعرف عظم موقعها في وقت الحاجة اليها. فان شككت في منفعة هذا الماء الكثير المتراكم في البحار فقلت ما الارب فيه فاعلم انه مسكن ومضطرب لما لا يحصى من اصناف السمك ودواب البحار ومعدن اللؤلؤ والمرجان والياقوت والعنبر واصناف شتى تستخرج من البحر ومن سواحله منابت العود واليلنجوج وضروب من الطيب والعقاقير ثم بعده هو مركب للناس ومحمل لهذه التجارات التي تحمل من البلدان البعيدة كما يجلب من الصين

الى العراق ومن العراق الى الصين وان هذه التجارات او لم يكن لها محمل الا على الظهر لبارت وبقيت في بلدانها وايدى اهلها لأن اجرة محملها كان يجاوز اثمانها فلا يتعرض احد لحملها وكان يجتمع في ذلك امران احدهما فقد اشياء كثيرة تعظم الحاجة اليها والآخر انقطاع معاش من يجلبها ويتعيش بفضلها .

(فكر في نزول المطر) على الأرض والتدبير فيه فأنه جعل ينحدر عليها من اعلا ليغشى ما غلظ منها وارتفع فيرويه ولو كان انما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها ولقل ما يزرع من الأرض الا ترى الذى يزرع سيحا اقل من ذلك والأمطار هي التى تطبق الأرض وبها تزرع هذه البرارى الواسعة وسفوح الجبال وذراها فتغل الغلة الكثيرة وبها يسقط على الناس في كثير من البلاد مؤنة بسياق الماء من موضع الى موضع وما يجري بينهم في ذلك من التشاح والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء .

ثم انه حين قدر ان ينحدر على الأرض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرش ليغور في قعر الأرض فيرويها ولو كان ينسكب انسكاباً كان يظل على وجه الأرض فلا يغور فيها ثم كان يحطم الزروع القائمة اذا اندفق عليها فصار ينزل نزولاً رفيقا فينبت الحب المزروع ويحيي الزرع القائم ثم في نزوله ايضاً مصالح اخرى فأنه يلين الأبدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء المسمى باليرقان الى اشباه هذا من المنافع فيه .

(فان قلت) او ليس قد يكون منه في بعض السنين الضرر العظيم لشدة وقع منه او برد يكون فيه تحطم الغلات او بخورة يحدثها الهواء فيولد كثيرا من الأمراض فى الأبدان والآفات في الغلات (قلنا) بلى قد يكون ذلك فى الفرط لما فيه صلاح الأنسان بكفه عن ركوب المعاصى والتمادى فيها فتكون المنفعة له فيما

يصلح له من دينه ارجح مما عسى ان يرزأ في ماله .

(فكر في المطر والصحو) كيف يعتقبان على العالم لما فيه صلاح ولو دام واحد منهما عليه كان في ذلك فساده الا ترى ان الأمطار اذا توالت عفنت البقول والخضر واسترخت ابدان الحيوان وخثر الهواء(١) فأحدث ضروباً من الأمراض وفسدت الطرق والمسالك. وان الصحو اذا دام جفت الأبدان وتصوح النبات ويبطئ نضج الثمار وغيض ماء العيون والأودية فأضر ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضروباً من الأمراض فاذا تعاقبا على هذا العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر فصلحت الأمور والأشياء واستقامت.

(فان قلت) ولم يكون في شيء منها مضرة البتة قلنا ليمض ذلك الانسان ويؤلمه بعض الألم فيرعوى وينزع عن المعاصي فكما ان الانسان اذا سقم بدنه احتاج الى الأدوية الكريهة المرة المنيعة لتقوم طباعه وتصلح ما فسد منه كذلك هو اذا طغى واشر احتاج الى ما يعضه ويؤلمه بعض الألم ليرعوى ويقصر عن بعض مساويه وينتبه على ما فيه حظه ورشده .

ولو ان ملكاً من الملوك قسم في اهل مملكته قناطير من ذهب وفضة الم يكن ذلك سيعظم عندهم ويذهب له به الصيت والذكر فأين ذلك من مطر واحد يعم البلاد وقيمته ما يزيد في الغلات من قناطير الذهب والفضة في اقاليم الارض كلها افلا ترى المطرة الواحدة ما اكثر قدرها واعظم النعمة على الناس فيها وهم عنها ساهون وربما عاقت احدهم عن الحاجة لاقدر لها فتذمر وتسخط ايثاراً للخسيس قدره على نفعه العظيم .

(فكر في هذا النبات) وما فيه من ضروب المآرب الثمار للغذاء والأتبان

---

(١) القاموس الخثر محركة العكر

للعلف والحطب للوقود والخشب لكل شيء من اعمال النجارة واللحاء والورق والزهر والأصول والفروع والصموغ لضروب من المنافع . افرأيت لو كنا نجد الثمار التي منها نتغذى مجموعة على وجه الأرض ولم يكن ينبت على هذا السوق والأغصان الحاملة لها كم كان سيدخل علينا من الخلل في معايشنا وهل كانت طيبة اذا اخذناها في الارض فالتدبير في كونها على ماهي عليه بيّن النفع والحكمة . وان كان الغذاء موجوداً فأن المنافع في الحطب والحشيش والاتبان وسائر ما عددنا عظيم موقعها جليل فقدها هذا مع ما في النبات من التلذذ بحسن منظوره ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر العالم وملاهيه فسبحان الذي احسن كل شيء خلقه .

(ثم فكر في هذا الريع) الذي جعل في الارض حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مئة حبة واكثر واقل وكان يجوز ان تكون الحبة تأتي بحبة مثلها فلم صارت تريع هذا الريع كله الا ليكون في الغلة متسع لما يرد في الارض من الحب ومما يقوت الزارع وغيره الى ادراك زرعه الا ترى ان الملك لو اراد عمارة بلد من البلدان كان السبيل في ذلك ان يعطي اهله ما يبذرونه في ارضهم وما يقوتهم الى ادراك زروعهم . فانظر كيف تجد هذا المثال قد تقدم في تدبير الحكيم فصار الزرع يريع هذا الريع ليفي بما يحتاج اليه القوت والزراعة وكذلك الشجر والنخل يريع الريع الكثير فأنك ترى الاصل الواحد حوله من الشكل امر عظيم فلم كان ذلك الا ليكون فيه ما يقطعه الناس ويستعملونه في مآربهم وما يرد فيغرس في الارض ولو كان الاصل منه يبقى منفرداً لا يفرخ ولا يريع لما امكن ان يقطع منه شيء لعمل ولا لغرس ثم كان ان اصابته آفة انقطع اصله فلم يكن منه خلف .

(تأمل نبات هذه الحبوب) من العدس والمج والدجر والجرجير وما اشبه

ذلك فأنها تخرج في اوعية شبه الخرائط لتصونها وتحجبها من الآفات الى ان تشتد وتستحكم كما قد تكون المشيمة على الجنين لهذا المعنى بعينه .

فأما البر وما اشبهه فأنه يخرج مدرجاً في قشور صلاب على رؤسها امثال الأسنة من السفا ليمنع الطير منه . فأن قلت او ليس قد ينال الطير منه على حال من البر والحبوب قلنا بلى لعمري وعلى هذا قدّر الامر فيها لان الطير ايضاً خلق من خلق الله تعالى وقد جعل الله له فيما يخرج من الارض حظاً ولكن حصنت الحبوب بهذه الحجب لكيلا يتمكن الطائر منها كل التمكن فيعبث فيها ويفسد الفساد الفاحش فأنه لو كان الحب يصاب والحب بارز ليس عليه شيء يحول دونه لأكب عليه حتى ينشفه اصلاً فكان يعرض من ذلك ان يبشم الطير فيموت ويخرج الزارع من زراعته صفراً فجعلت هذه الوقايات لتصونه فتنال الطير منه شيئاً يسيراً ويتقوت به ويبقى اكثره للانسان لانه اولى به اذا كان هو الذي طرح فيه وسقاه وكان الذي يحتاج اليه اكثر مما يحتاج اليه الطائر .

تأمل الحكمة فى خلق الشجر واصناف النبات فأنها لما كانت تحتاج الى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ولم تكن لها افواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت اصولها مركوزة فى الارض لينزع منها الغذاء فتؤديه الى الاغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الارض كالام المربية لها وصارت اصولها التى هى لها كالأفواه الملتقمة للارض لتنزع منها الغذاء كما ترضع اصناف الحيوان من امهاتها . الم تر الى عمد الفُسطاط والخيم كيف تمد بالأطناب من كل جانب لتثبت منتصبة فلا تسقط ولا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة فى الارض وممتدة الى كل جانب لتمسكه وتقيمه ولولا ذلك كيف كان يثبت هذا النخل الطوال والدوح العظام فى الريح العاصف .

فانظر الى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة فصارت الحكمة التي تستعملها الصناعة في ثبات الفساطيط والخيم متأخرة لأن خلق الشجر قبل صناعة الفساطيط والخيم (١) الا ترى ان عمودها ودعائمها وعيدانها من الشجر فيحق ما قال الاولون (الصناعة تحكى الطبيعة)

تأمل خلق الورق فأنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فيها اجمع فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً رقيقا معجبا لو كان مما يصنع بالأيدي كصنعة البشر لما فرغ من ورق شجرة في عام كامل ولا احتيج فيه الى آلات وحركة وعلاج وكدح فصار يأتي منه في ايام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهول وبقاع الارض كلها بلا حركة ولا كلام الا الارادة النافذة في كل شيء . واعرف مع ذلك العلة في تلك العروق فأنها جعلت تتخلل الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل اليها المادة بمنزلة العروق المبثوثة في البدن لتوصل الغذاء الى كل جزء منه وفى الغلاظ ايضاً معنى آخر فأنها تمسك الورقة بصلابتها ومتانتها لكيلا تنتهك وتتمزق فترى الورقة شبيهة بورقة معمولة بالصنعة من خرق قد جعلت فيها عيدان ممدودة في طولها وعرضها لتتماسك فلا تضطرب فالطبيعة وان كانت تمثل بالصناعة فأن الصناعة هى التي تشبه الطبيعة .

(فكر في هذه العجم والنوى) والعلة فيه فأنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقام الغراس ان قام دون الغرس عائق كما قد يخزن الشيء النفيس الذي تعظم الحاجة اليه في مواضع شتى فأن حدث على الذى في بعض المواضع منه حدث وجد في آخر . ثم هو بعد يمسك بصلابته رخاوة الثمار ورقتها ولولا ذلك لتشدخت

(١) العبارة في كتاب الحكمة في مخلوقات الله للغزالى هكذا فانظر الى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة واقتدى الناس في اعمالهم بحكمة الله في مصنوعاته اهـ وهي اوجز واجمل

وتفسخت واسرع اليها الفساد وفي بعضه حب يؤكل ويستخرج دهنه فيستعمل في ضروب من المصالح .

واذ قد تبين لك موضع الارب من العجم والنوى ففكر الآن في هذا الذي يخرج فوقه من المأكل الذي يجده فوق النواة من الرطب وفوق العجم من العنبة ما العلة فيه ولماذا يخرج بهذه الهيئة (١) وقد كان يمكن ان يكون مكان ذلك ما ليس فيه مأكل كمثل ما يكون في السرو والدلب والطرفا وما اشبه ذلك فلم صار يخرج وفوقه هذه المطاعم اللذيذة الا ليستمتع بها الانسان وينال منها بعض الانعام والهوام .

(فكر في ضرب من التدبير في الشجر) فانك تراه يموت في كل سنة موتة فتحتبس الحرارة الطبيعية في غوره وتتولد مواد الثمار ثم تحي وتنتشر فتأتيك بهذه الفواكه نوعاً بعد نوع كما تقدم اليك انواع الأخبصة التي تعالج بالايدي واحداً بعد واحد فترى الاغصان في الشجر تلقاك بالثمر حتى كأنها تناولكها عن يد وترى الرياحين تلقاك في افنانها كانها تحييك بأنفسها . فمن هذا التقدير الا لمقدر حكيم . وما العلة فيه الا تفكيه الأنسان بهذه الأنواع افلا تعجب من اناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها .

(فكر في خلق الرمانة) وما ترى فيها من اثر العمد والتدبير فانك ترى فيها كأمثال التلال من شحم مركوم من نواحيها وحب مرصوف رصفاً كنحو ما ينضد بالأيدي وترى الحب مقسوماً اقساماً كل قسم منها مقسوم بلفايف من حجب منسوجة اعجب نسيج والطفه وقشره يضم ذلك كله فمن التدبير في هذه الصنعة انه لم يجز ان يكون حشو الرمانة من الحب وحده وذلك ان الحب لا يمد بعضه

(١) هكذا ولعل الصواب بهذه الهيئة كما يتبادر من العبارة في كتاب الحكمة للغزالي

بعضاً فجعل ذلك الشحم خلال الحب ليمده بالغذاء الا ترى ان اصول الحب مركوزة في ذلك الشحم ثم لف الحب في تلك اللفايف ليضمه ويمسكه فلا يضطرب وغشى فوق ذلك بالقشرة المستحصفة لتصونه وتحفظه من الآفات فهذا قليل من كثير من وصف الرمانة وفيه اكثر من هذا لمن اراد الاطناب والتذرع في الكلام ولكن في هذا الذي ذكرنا منه كفاية في الدلالة والعبرة .

(فكر في حمل اليقطين) الضعيف مثل هذه الثمار الثقال كالدبا والقثاء والخربز وما في ذلك من التدبير فأنه لما قدر ان تحمل مثل هذه الثمار جعل نباته منبسطاً على الارض ولو كان منبسطاً قائماً كما ينتصب الزرع والشجر لما استطاع ان يحمل مثل هذه الثمار الثقيلة ولتقصفت قبل ادراكها وانتهائها الى غاياتها . فانظر كيف صار يمتد على وجه الارض ليلقى عليها ثماره فتحملها عنه فترى الاصل من القرع والبطيخ مفترشاً على الارض وثماره مبثوثة حواليه كأنها هرة ممتدة قد اكتنفها اجراؤها لترضع منها فانظر كيف صارت هذه الاصناف توافي في الوقت المشاكل لها من حمارة الصيف ووقدة الحر فتلقاها الطبيعة بأنشراح وتشوق اليها ولو كانت توافى في الشتاء لوافقت من الناس كراهة لها واقشعراراً منها مع ما يكون منها من المضرة للأبدان الا ترى انه ربما ادرك شيء من القثاء في الشتاء فامتنع الناس من اكله الا الجشِع الذى لا يمتنع من اكل ما يضره ويستوخم مغبته .

(فكر في خلة تجدها في النخل) فأنه لما صار منها اناث تحتاج الى التلقيح جعلت فيها ذكور تلقح فصار الذكر من النخل بمنزلة الذكر من الحيوان الذى تلقح الأناث لتحمل وهو لا يحمل .

تأمل خلقة الجذع فأنك تراه منسوجاً نسجاً من خيوط ممدودة كالسدى واخرى معترضة كاللحمة كنسج ما ينسج بالأيدى وذلك ليشتد ويصلب ولا يتقصف

من حمل القنوان الثقيلة وهبوب الرياح العواصف اذا كان نخلة وليتهيأ للسقوف والجسور وغير ذالك مما يتخذ منه اذا كان جذعا فكذلك ترى فى الخشب منه شبه النسج فأنك ترى بعضها متداخلا بعضها طولاً وعرضاً [١] كتداخل اجزاء اللحم وفيه مع ذلك متانة ليصلح لما يتخذ منه من الآلات فأنه لو كان مستحصفاً كالحجارة لم يكن ان يستعمل في السقوف وغير ذلك مما يستعمل فيه الخشب كالابواب والاسرة والتوابيت وما اشبه ذلك

ومن جسيم المصالح فى الخشب انه يطفو على الماء فكل الناس يعرف هذا وليس كلهم يعرف خلاله والنفع فيه فلولا هذه الخلة كيف كانت هذه السفن والاطواف تحمل امثال الجبال من الحمولة وانى كان ينال الناس هذا المرفق وخفة المؤنة في حمل التجارات من بلد الى بلد بل كانت ستعظم المؤنة عليهم في حملها حتى تلقي كثيراً منها في بعض البلدان مفقوداً اصلاً او عسيراً وجوده

(فكر في هذه العقاقير) وما خص به كل واحد منها من العمل في بعض الأدواء فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة مثل الشيطرج وهذا ينزف المرة السوداء مثل الافيتمون وهذا ينفى الريح مثل السكبينج وهذا يحلل الاورام مثل الرازيانج واشباه هذا من افعالهم . فمن جعل هذه القوى فيها الامن خلقها للمنفعة ومن فطّن الناس لها الامن جعل هذا فيها ومتى كان يوقع على هذا منها بالعرض والاتفاق كما قال قائلون وُهب الانسان فطنة لهذه الاشياء بذهنه ولطيف رويته فالبهائم كيف فطنت لها حتى صار بعض البهائم تتداوى من جراحة ان اصابته ببعض العقاقير فتبرأ وبعض الطير يحتقن من الحصر يصيبه بماء البحر فيسلم واشباه ذلك مما يذكر في كتب الطب والطبيعة .

---

(١) هكذا ولعل الصواب بعضها متداخلاً طولاً وبعضها عرضاً

ولعلك تشك في هذا النبات النابت في الصحارى حيث لا انس ولا انيس تظن انه فضل لا حاجة اليه وليس كذلك بل هو طعم لهـذه الوحوش وحبة علف الطير وسوقه وافنانه حطب يستعمله الناس وفيه بعد اشياء يعالج بها الابدان واخرى يدبغ بها الجلود واخرى يصبغ بها الامتعة واشباه هذا من المصالح.

الست تعلم ان من اخس النبات واحقره هذا البردي والخلفا واشباهه وفيه مع هذا ضروب من المنافع فقد يتخذ منه القرطاس الذي يحتاج اليه الملوك والسوقة والحصر التي يستعملها كل صنف من الناس ويعمل منها الغلف التي توقي بها الاواني يجعل حشواً بين الظروف في الاسفار كيلا يعيب ولا يتكسر واشباه هذا من المآرب في صغير الخلق وكبيره وذوي القيمة منه ومالا قيمة له. واخس من هذا واحقر الزبل والعذرة التي اجتمعت فيها الخساسة والنجاسة معاً وموقعها من البقول والزروع وجميع الخضر الموقع الذي لا يعدله شيءٌ حتى ان كل شيءٌ من الخضر لا يصلح ولا يزكو الا بالزبل والسماد الذى يستقذره الناس ويكرهون الدنو منه انه ليست منزلة الشيءٌ في العلم على حسب قيمته في السوق بل هما قيمتان مختلفتان لسوقين مختلفين وربما كان الخسيس فى سوق الكسب نفيسا فى سوق العلم فلا تستصغر العبرة فى الشيءٌ لصغر قيمته .

فكر فى بنية ابدان الحيوان وتهيئتها على ما هى عليه فلا هى صلاب كالحجارة اذا كانت لا تنثنى ولا تتصرف فى الاعمال ولا هى على غاية اللين والرخاوة اذا كانت لاتتحامل ولا تستقل فجعلت من لحم رخو ينثنى بتداخله عظام صلاب تمسكه وعصب وعروق تشده ونظم بعضه الى بعض ثم غلفت فوق ذلك بجلد يشتمل على البدن كله .

ومن اشباه ذلك هذه التماثيل التى تعمل من العيدان ويلف عليها الخرق وتشد

بالخيوط ويطلى فوق ذلك بالصمغ فتكون العيدان بمنزلة العظام والخرق بمنزلة اللحم والخيوط بمنزلة العصب والعروق والطلى بمنزلة الجلد. فان جوزت ان يكون الحيوان الحي المتحرك حدث بالاهمال او من غير صانع فجواز ذلك اولى في هذه التماثيل الميتة وان اغناك هذا في التماثيل ففي الحيوان احرى ان يتعذر عليك.

وفكر بعدها في اجسام الأنعام فأنها حين خلقت كما خلقت ابدان الأنس من اللحم والعظم والعصب اعطيت ايضاً السمع والبصر ليبلغ الانسان حاجته فأنها لو كانت عميا صما لما انتفع بها الانسان ولا تصرفت في شيء من مآربه ثم منعت الذهن والعقل لتذل للأنسان فلا تمتنع عليه اذا كدها الكد الشديد وحملها الثقيل ولعلك تقول انه قد يكون للانسان عبيد من الأنس يذلون ويذعنون بالكد الشديد وهم مع ذلك غير عديمي العقل والذهن فنقول في جواب ذلك ان هذا الصنف في الناس قليل فاما اكثر الناس فلا يذعنون بما يذعن به الدواب من الحمل والطحن وما اشبه ذلك ولا يفون بما يحتاج اليه منه ثم لو كان الناس يزاولون مثل هذا العمل بأبدانهم لشغلوا بذلك عن سائر الأعمال لانه يحتاج مكان الجمل الواحد والبغل الواحد الى عدة اناس فكان هذا العمل يستفرغ الناس حتى لا يكون فيهم عنه فضل بشيء من الصناعات والمهن الى ما كان سينالهم من التعب الفادح في ابدانهم والضيق والنكد في معايشهم

فكر في خلقة هذه الاصناف الثلاثة من الحيوان وتهيئتها على ما فيه صلاح كل واحد فالانس لما قدر ان يكونوا ذوي ذهن وفطنة وعلاج لمثل هذه الصناعات من البناء والنجارة والحياكة والجزارة وما اشبه ذلك خلقت لهم اكف كبار ذوات اصابع غلاظ تتمكن من القبض على الأشياء ومزاولة هذه الصناعات. وآكلات اللحم لما قدر ان يكون معاشها من الصيد خلقت لها اكف لطاف

مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لاخذ الصيد ولاتصلح للصناعات. وآكلات النبات لما قدر ان تكون لا ذات صنعة ولا ذات صيد خلقت لبعضها اظلاف تقيها خشونة الارض اذا جالت فى طلب المرعى ولبعضها حوافر ململمة ذوات قعر كأخمص القدم لينطبق على الارض ويتهيأ للركوب والحمولة .

تأمل التدبير فى خلقة آكلات اللحم من الحيوان حين جعلت ذوات اسنان حداد وبراثن شداد وافواه واسعة فانه لما قُدِّر ان يكون طعمها اللحم خلقت خلقة تشاكل ذلك واعينت بسلاح وادوات تصلح للصيد فكذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير ومخالب مهيأة لفعلها لو كانت الوحوش ذوات مخالب كانت قد اعطيت ما لا تحتاج اليه لأنها لا تصيد ولا تأكل اللحم ولو كانت السباع ذوات اظلاف كانت قد منعت ماتحتاج اليه اعنى السلاح الذي به تصيد وتتعيش . افلا ترى كيف اعطي كل واحد من الصنفين ما يشاكل صنعته وطبيعته بل ما فيه بقاؤه وصلاحه انظر الى اولاد ذوات الاربع كيف تتبع امهاتها مستقلة بأنفسها لاتحتاج الى الحمل والتربية كما تحتاج اولاد الانس فمن اجل انه ليس عند امهاتها ما عند امهات البشر من الترفق والعلم والتربية والقوة عليها بالأكف والأصابع المهيأة لذلك اعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها . وكذلك ترى فراخ كثير من الطير كمثل الدراج والدجاج والقبج يدرج ويلقط حين يتقات عنها البيض (١) . فأما ما كان منها ضعيفاً لا نهوض به كمثل فراخ الحمام والهام والحمر فجعل فى الامهات فضل عطف فصارت تمج الطُعم فى فيه بعدما توعبه حواصلها ساعة ليلين ويسهل قبول الفرخ ولا تزال تغذوه حتى ينهض ويستقل بنفسه وكل اعطي بقسطه من التدبير الحكيم . انظر الى قوائم الحيوان كيف تأتى ازواجاً ليتهيأ المشي ولو كانت افرادا لم تصلح

(١) فى القاموس النقت استخراج المخ اه مصححه

لذلك لأن الماشي ينقل بعض قوائمه و يعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحداً ويعتمد على واحد وذو الاربع ينقل اثنين و يعتمد علي اثنين من خلاف لان ذا الاربع لو كان ينقل قائمتين من احد جانبيه و يعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الارض كما لا يثبت السرير وما اشبهه على قائمتين من احد جانبيه على انه ليس فى السرير روح والروح حمل الحيوان فصار ينقل اليمنى من مقاديمه مع اليسري الاخرى من مآخيره ويقر الاخيرتين ايضاً من خلاف فيثبت على الارض ولا يسقط اذا مشى .

اما ترى كيف يذل للحمولة والطحن وهو يرى الفرس مودعا منعما والبعير الذي لا يطيقه عدة رجال لو استعصي كيف ينقاد للصبي . والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه فيحرث الأرض به والفرس الكريم يركب بالسيوف والأسنة بالمواتاة لفارسه وكيف يتصرف فى الكر والفر والنأي والبعد ورد طوع عنانه والجمه على السيوف لغشيها(١) والقطيع من الغنم يرعاه رجل واحد ولو تفرقت الغنم فاخذت كل واحدة منها في ناحية لم يلحقها وكذلك جميع الأصناف المسخرة للأنسان فبم كانت ذلك الا بانها عدمت العقل والروية فانها لو كانت تروّى في الأمور كانت خليقة ان تلتوي على الأنسان فى كثير من مآربه حتى يمتنع الجمل على قائده والثور على صاحبه والغنم على راعيها واشباه هذا من الأمور وكذلك هذه السباع لو كانت ذوات عقل وروية فتواردت على الناس كانت خليقة ان تجتاحهم فمن كان يقوم للأسد والذئاب والنمور والضباع والدببة والهوام والحيات لو تعاونت وتظاهرت على الناس .

الا ترى كيف حجر ذلك عنها فصارت مكان ما كان يخاف من اقدامها ونكايتها

[١] هكذا العبارة ويظهر ان هنا نقصا كلمة او كلمتين وان كان المعنى مفهوما اه مصححه

تهاب مساكن الناس وتحجم عنها ثم لا تظهر ولا تنتشر في طلب قوتها الا بالليل فهي مع عداوتها وصولتها كالخائفة للأنس بل هي مقموعة ممنوعة منهم ولولا ذلك لساورتهم في مساكنهم وضيقت عليهم مسالكهم .

اما ترى الكلب وهو كبعض السباع العادية كيف يتوقل على الحيطان والسطوح في ظلمة الليل لحراسة منزل صاحبه وذب الدعار عنه ويبلغ من محبته لصاحبه ان يبذل نفسه الموت دون ماشيته وماله ويألفه غاية الالف حتى يصبر معه على الجوع والعطش فلم طبع الكلب على هذا الالف والمحبة للانسان الا ليكون حارساً للانسان حافظاً لماله في اوقات غفلته . ثم انه حين جعل حارساً للانسان اعين بأنياب ومخالب ونباح هائل ليذعر منه السارق والمريب ويتجنب المواضع التي تحميها كلاب وله شجاعة لا تثنيه وصبر لا يخونه وسعي يلحق به الضياء وشم يستروح به انفاس الطير والارانب والثعالب في مكانها وغير ذلك .
ثم انظر لم صار ظهر الدابة مسطحاً مبطوحا على قوائم اربع الا لتتهيأ للركوب والحمولة . ولم صار حياها بارزاً من ورائها الا ليتمكن الفحل من ضرابها فأنه لو كان من اسفل البطن كما كان الفرج من المرأة لم يتمكن الفحل منها . الا ترى انه لا يستطيع ان يأتيها كفاحاً كما يأتي الرجل المرأة وقد ذكر ارسطاطاليس في كتاب الحيوان ان حيا الانثى من الفيلة في اسفل بطنها فان كان وقت الضراب ارتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من ضرابها .
فانظر كيف جاء الحيا في الانثى من الفيلة على خلاف ماهي عليه في غيرها من الانعام ثم جعلت فيه هذه الخلة ليتهيأ للامر الذي به قوام النسل .

انظر الى هذه البهائم كيف كسيت اجسامها هذه الكسوة من الشعر والوبر ليقيها من البرد وكثير من الآفات والبست قوائمها الاظلاف والحوافر لتقيها

من الجفا فانها لما كانت بهايم لا اذهان لها ولا اكف ولا اصابع مهيأة للغزل والنسج كفيت ذلك بأن جعلت كسوتها في خلقتها باقية عليها مابقيت لا تحتاج الى تجديدها ولا استبدالها. فاما الانسان فهو ذو حيلة وكف مهيأة للعمل فهو يغزل وينسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال وله في ذلك صلاح من جهات (منها) انه يشتغل بصنعة اللباس عن العبث وما تخرجه اليه الكفاية (ومنها) انه يستريح الى خلع كسوته اذا شاء ويلبسها اذا شاء (ومنها) انه يتخذ لنفسه ضروباً من الكسوة لها جمال وروعة فيتلذذ بلبسها وتبديلها (ومنها) انه يتلذذ تارة بالعري وتارة يتنعم باللباس وكذلك يتخذ بالترفق والصنعة ضروباً من الخفاف والنعال يقي بها قدميه فصار الشعر والوبر يقوم للبهائم مقام الكسوة واظلافها والحوافر مقام الحذاء .

(فكر في خلقة عجيبة) جعلت في البهائم الوحشية فانها توارى انفسها كما توارى الناس موتاهم والا فأين جيف هذه الوحوش والسباع وغير ذلك لا يرى منها شيء وليست شيئاً قليلا فتخفى لقلتها بل لو قال قائل انها اكثر من جيف الانس لصدق واعتبر ذلك بما تراه في هذه الصحارى من اضرب الظباء والمها والحمر والوعول والايايل وغير ذلك من الوحوش واصناف السباع من الاسد والضباع والذئاب والنمور وغيرها وضروب الهوام من الحشرات ودواب الارض وكذلك اسراب الطير من الغربان والقطا والاوز والكراكي والحمام وسباع الطير اجمع فأين هذه كلها لا ترى منها شيئاً ميتاً الا الواحد بعد الواحد يصيده قانص او يفترسه سبع فما يدل عليه القياس انها اذا احست بالموت تكمن في مواضع خفية فتموت فيها فلولا ذلك لامتلأت الصحاري منها حتى تفسد رائحة الهواء وتحدث الامراض والوباء فانظر الى هذه الذي تخلص الناس اليه بالفكر والروية كيف جعل طبعاً في البهائم

ليسلم الناس من مغبة ذلك . واما ما جعل بين الناس عيشه من الانعام والطير والهوام فلقدرة الناس على نقله والتدبير في دفع اذيته فقد نزع منه ما جعل في الوحوش وهو دليل على ان العالم ليس باهمال .

تأمل وجه الدابة كيف هو فأنك ترى العينين شاخصتين امامها لتنظر ما بين يديها فلا تصدم حائطاً ولا تردي في حفرة وتحرس نفسها وفارسها وترى الفم مشقوقاً شقاً في اسفل الخطم لتتمكن من العض على العلف فأنه لو كان فوها في مقدم الخطم كمكان الفم من الانسان في مقدم الذقن لما استطاعت ان تتناول شيئاً من الارض الاتري ان الانسان لا يتناول الطعام بفيه ولكن بيده فلما لم يكن للدابة يد تتناول به العلف جعل خطمها مشقوقاً من اسفله لتضعه في العلف ثم تقضمه من مقضمه واعينت بالجحفله لتقمقم بها ما قرب منها وما بعد فلا يفوتها شيء من طعام وان شك شاك في الذنب والمنفعة فيه فقلنا بمبلغ علمنا ان للذنب الدابة اسبابا منها انه بمنزلة الطبق على الدبر والحيا جميعا يواريهما ليسترهما ومنها ان ما بين الدبر ومراق البطن من الدابة وضراً بذا تجتمع عليه الذباب والبعوض والقردان والحلمة فجعل لها الذنب كالمذبة تذب بها على ذلك الموضع ومنها ان الدابة تستريح الى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة فأنه لما كان قوامها على الاربع بأسرها وشغلت المقدمتان بحمل البدن على التصرف والتقلب والتلفت كان لها في تحريك الذنب مسرة وراحة . وعسى ان يكون فيه اسباب اخري يقصر عنهم الوهم ويزدرى بها السامع اذا سمعها لانه لا يعرف موقعها الا في وقت الحاجة اليها فمن ذلك ان الدابة ترتطم في الوحل فلا يكون شيء اعون على نهوضها من الاخذ بذنبها .

انظر الى مشفر الفيل وما فيه من لطف التدبير فأنه صار يقوم له مقام اليد في تناول

تناول العلف والماء وايراده الى جوفه ولولا ذلك لما استطاع ان يتناول شيئاً من الارض لانه ليست له عنق يمدها كسائر الانعام فلما عدم العنق اخلف عليه مكان العنق ذلك الخرطوم الطويل ليسدله فيتناول به حاجته وجعل اجوف لانه وعاء لما يحمل الى صدره من طعامه وشرابه وايضاً فهو سلاحه وبه يعطى ويتناول ويقابل ويصول فمن الذي عوضه مكان العضو الذي عدمه ما يقوم له مقامه الا الرؤف بخلقه كيف يأتي مثل هذا بالاهمال كما قال الظلمة .

فان قلت ما باله لم يخلق ذا عنق كسائر الانعام اجبنا بمبلغ علمنا فقلنا ان رأس الفيل واذنيه ونابيه امر عظيم وثقل ثقيل فلو كان ذلك على عنق لهدها واوهنها فجعل رأسه ملصقاً لكيلا يناله ما وصفنا وخلق له مكان هذا المشفر ليتناول به غذائه فصار مع عدمه العنق مستوفيا ما فيه بلوغ حاجته . وليكون اختلاف الخلق ادل على القدرة والتدبير فيتناول العلف بمشفره وآخر بعنقه وآخر بيده وآخر بمنقاره ويكون لبعض معقفا (١) كالصولجان الى زوره (٢) وآخر معقفا الى جانبه وآخر عريضاً وآخر كالطبرزين وآخر كالمخلب وذلك على مقدار ما يصلح لمعاشهم في لقط او صيد وغير ذلك . ومن الحيوان من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على اربع اقتداراً من رب العالمين على خلق ما يريد كيف يريد وهو على كل شي قدير .

(فكر في خلق الزرافة) واختلاف اعضائها وشبهها بأعضاء اصناف من الحيوان فرأسها وجلدها جلد نمر وعنقها عنق جمل واظلافها اظلاف بقر حتى ان ناساً زعموا ان نتاجها من فحول شتى وسبب ذلك ان اصنافا من حيوان البر

(١) فى القاموس عقفه عطفه (٢) الزور وسط الصدر وما ارتفع منه الى الكتفين او ملتقى عظام الصدر حيث اجتمعت اه مصححه .

فيما ذكروا اذا وردت على بعض الماء تنزو على بعض السائمة فتنتج مثل الشخص الذى هو كالملتقط من اصناف شتى. وهذا مما لا يصح فى القياس لأنه ليس كل صنف من الحيوان يلقح كل صنف فلا الفرس تلقح الجمل ولا الجمل يلقح البقر وانما يكون هذا من بعض الحيوان فيما يشاكله ويقرب من خلقه كما يلقح الفرس الحمار فيخرج من بينهما البغل ويلقح الذئب الضبع فيخرج من بينهما السمع (٣) على انه ليس يكون في الذى يخرج من بينهما عضو من كل واحد منهما كما يكون فى الزرافة عضو من الفرس وعضو من الجمل بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما كالذي تراه فى البغل فأنك ترى رأسه واذنيه وكفله وحوافره وسطاً بين هذه الأعضاء من الفرس والحمار حتى شحيجه (١) ايضاً كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار فهذا دليل على انه ليست الزرافة من لقاح اصناف شتى من الحيوان كما زعم الزاعمون بل هي خلق عجيب من خلق الله الدالة على قدرته التى لا يعجزه شيء وليعلم انه خالق اصناف الحيوان كلها بجميع ما شاء منها في الأعضاء في ايها شاء ويفرق بين ما شاء منها فى ايها شاء. فأما طول عنقها فالمنفعة لها فى ذلك فلأن منشأها ومرعاها كما يذكر اهل الخبرة بها غياطل ذوات الأشجار شاهقة ذاهبة طولاً فهي تحتاج الى طول العنق لتتناول تلك الأشجار فتقوت من ثمارها .

(تأمل خلقة القرد) وشبهه بالأنسان فى كثير من اعضائه اعنى به الرأس والوجه والصدر والمنكبين وكذلك احشاؤه ايضاً شبيهة بأحشاء الأنسان كالذى يصف ارسطاطاليس فى كتاب الحيوان وشهد به كتب الطب من ذلك ثم

---

(٣) السمع بالكسر ولد الذئب من الضبع قاموس

(١) في القاموس شحيج البغل والغراب صوته كشحاجة بالضم اه مصححه

ما خص به من الذهن والفطنة التى بها يفهم عن سائسه ما يريد منه ويقبل التأديب ويعرف ما يومي اليه ويحكى كثيراً مما يرى الأنسان يفعله حتى انه يقرب من خلق الأنسان فى شمائله فمن التدبير فى خلقه على ما هو عليه ان يكون عبرة للأنسان فيعلم انه من طينة البهائم وسحنتها اذ كان يقرب من خلقها هذا القرب فلا يطغى ولا يتمرد على خالقه فأنه لولا فضيلة فضله الله بها فى الذهن والعقل كان كبعض البهائم الا ان فى جسم القرد فصولاً اخرى تفرق بينه وبين الأنسان كالخطم والناشر والذنب المسبل والشعر المجال للجسم كله لكن هذا لم يكن بالمانع للقرد ان يلحق بالأنسان لو اعطى مثل ذهن الأنسان وعقله فالفاصل بينه وبين الأنسان بالصحة هي النقص فى الذهن .

(وهل سمعت ما يتحدث به عن التنّين) والسحاب فأنه يقال ان السحاب كالموكل به يختطفه حيث ما يقفه كما تخطف حجر المغناطيس الحديد حتى صار لا يطلع رأسه من بطن الأرض (١) خوفاً من السحاب ولا يخرج فى القرط الامرة اذا اضحت السماء فلم يكن فيها نكتة من غيم . فلم وكل السحاب بالتنين يرصده ويخطفه اذا وجده الا ليدفع عن الناس ضره . فأن قلت ولم خلق التنين اصلا قلنا للتخويف والترهيب وللنكال فى موضع ذلك فهو كالسوط المعلق يخوف به اهل الريب احياناً للتأديب والموعظة .

(فكر فى ضروب من الفطن) جعلت فى البهائم لمصلحتها بالطبع والخلقة لا بعقل وروية فقد يقال ان الأيّل تأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً ويمتنع من شرب الماء خوفاً من ان يدب فى جسمه فيقتله . وانه يقف على الغدير وهو

(١) هنا بخط دقيق بدل قوله من بطن الارض من بطن الماء فهو ملازم لقعر البحر دائماً خوفاً من السحاب الخ وفى حياة الحيوان التنين ضرب من الحيات كاكبر ما يكون منها وهو ايضاً نوع من السمك اه مصححه

مجهود عطشاً فيعج عجيجاً غاليا ولا يشرب منه حتى يعلم ان السم قد تفرق وان الذى اكل قد انهضم وحينئذ يشرب .

فانظر الى ما جعل فى طباع هذه البهيمة من الصبر على الظمأ الغالب خوفاً من المضرة فى الشرب وذلك مما لا يكاد الأنسان العاقل ان يضبطه من نفسه .

ومن الحديث المستفيض ان الثعلب اذا اعوزه الطُعم تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتاً فأذا وقعت عليه لتنهشه وثب عليها فأخذها فمن اعان الثعلب العديم العقل والنطق والروية بهذه الحيلة الا من كان توجه بتوجيه الرزق له من هذا وشبهه فأنه لما كان الثعلب يضعف عن كثير مما يقوى عليه السباع من مساورة الصيد اعين بالذهن والفطنة والأحتيال لمعاشه . ويتحدث عن الدلفين انه يلتمس صيد الطير فتكون حيلته فى ذلك ان يأخذ السمك فيقتله ويشدخه حتى يطفو على الماء ثم يكمن تحته ويثير الماء الذى حوله حتى يتبين شخصه وأذا وقعت الطير على السمك الطافى وثب عليها فاصطادها . فانظر الى هذه الحيلة اللطيفة كيف جعلت طبعاً فى هذه البهيمة لبعض المصلحة . واسمع ما يحدث به عن التمساح من انه يجمع فتات اللحم الذى يأكله فى تضاعيف اسنانه وتدود فيتأذى فيخرج الى الساحل فيفتح فاه كالميت فيحسبه الطير ميتا فيسقط على فيه فيلتقط الدود فأذا علم ان فاه قد نظف انطبق فيه على الطير فابتلعه فقالوا (اكافيك مكافاة التمساح) .

(تأمل الذرة الحقيرة) هل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها فى طبقتها فمن اين هذا التقدير والصواب فى خلق الذرّة الا من التدبير القائم فى صغير الخلق وكبيره وترى الذر يلتقي فى طريقه فيتوافف الذرتان كما يسلم الرجل على صاحبه اذا لقيه ويسأله عن حاله وخبره .

(انظر الى النمل) واحتشاده فى جمع القوت واعداده للشتاء لأنها تستتر فيه فلا تخرج فأنك ترى الجماعة منها اذا نقلت الحب الى بيتها بمنزلة جماعة من الناس تنقل طعاماً او غيره بل ترى للنمل فى ذلك من الجد والتشمير ما ليس للأنسان مثله وتراه يتعاون على النقل كما يتعاون الناس على العمل . ثم انه يعمد الحب فيقطعه كيلا ينبت فيفسد عليه وان اصابه ندىً اخرجه فيبرّزه حتى يجف ثم لا يتخذ الزبية الا في نشز من الأرض لكيلا يفيض عليها السيل فيغرقها وكل هذا منه بلا عقل ولا روية بل بخلقة خلق عليها لمصلحته .

(انظر الى هذا الذى يقال له الليث ١) ويسمى بالسريانية اسد الذباب وما اعطى من الحيلة والرزق فى طلب معاشه فأنك تراه حين يحس بالذباب قد وقع بالقرب منه تركه مليا حتى كأنه ميت لاحراك به فأذا رأى الذباب قد اطمأن وغفل عنه دب دبيباً رفيقاً حتى يكون بحيث يناله وثبة ثم وثب عليه فأخذه فاشتمل عليه بجسمه كله مخافة ان يثب الذباب فينجو منه وتجده ايضاً يتحرى غمز جناحيه وقبضهما بيديه ورجليه ليبطل فعلهما فلا يزال قابضاً عليه حتى يحس بأنه قد ضعف واسترخى ثم يقبل عليه فيبرشقه ويحى بذلك منه .

(فأما العنكبوت) فأنه ينسج ذلك النسج شركاً لا يقدر على مثله الآدميون ومصيدة للذباب ثم يكمن فى جوفه فأذا نشب فيه الذباب احال عليه يلدغه ساعة بعد ساعة ويمصه ويجعله قوتا فيتعيش بذلك فذلك يحكى صيد الكلاب والفهود وهذا يحكى صيد الأشراك والحبائل فانظر الى هذه الدويبة الضعيفة كيف جعل فى طبعها ما لا يبلغه الأنسان الا بالحيلة واستعمال الآلات فيها . ولا تزرى بالشيء عندك ان تكون العبرة فيه بالذرة والنملة وما اشبه ذلك فأن المعنى

(١) الليث ضرب من العناكب يصطاد الذباب وهو اصغر من العنكبوت اه حياة الحيوان

النفيس قد يتمثل بالمثل الحقير ولا يقصر به بذلك كما لا يقصر بالدينار وهو من ذهب ان يوزن بمثقال من الحجر والحديد .

(تأمل جسم الطائر وخلقته) فأنه حين قدّر ان يكون طائراً في الجو خفف جسمه وادمج خلقه واقتصر به من القوائم الأربع على ثنتين ومن الأصابع الخمس على الأربع ومن منفذى الزبل والبول على واحد يجمعهما . ثم خلق ذاجوّ محدود محس (١) ليسهل عليه ان يخرق الهواء كيفما توجه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات متان لينهض به للطيران وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيقله ولما قدر ان يكون طعمه الحب واللحم يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلقة الانسان وخلق له منقار صلباً جاسياً يتناول به طعمه فلا يتشجج من لقط الحب ولا يتقصف من نهش اللحم ولما عدم الأسنان وصار يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريضاً اعين بفضل حرارة في الجوف يطحن له الطعام طحناً فيستغنى عن التقدم فى مضغه واعتبر ذلك بان عجم العنب وغيره يخرج من اجواف الأنس صحيحاً ويطحن فى اجواف الطير حتى لا يرى له اثر

ثم جعل ايضاً مما يبيض بيضا ولا يلد ولادة لكيلا يثقل عن الطيران فأنه لو كانت الفراخ تنجل في جوفه وتمكث فيه حتى تستحكم وتكبر لأثقلته وعاقته عن النهوض والطيران

افلا ترى كيف يوجد كل شئ من خلقه مشاكلاً للأمر الذى قدر ان يكون عليه لم صار الطير المسخر السابح في هذا الجو يقعد على الطير فيحضنه اسبوعاً واسبوعين

(١) هكذا وفيه تحريف ولعل الصواب ذاجوّية محدودب محن ليسهل عليه الخ وبه يستقيم المعنى والجوية كغنية استدارة كل شئ كما فى القاموس اه مصححه

ومن الطير من يلقط الطُعم بعد ان يستقر في حوصلته فيغذو به فراخه لأي معنى يحتمل هذه المشقة وليس بذى روية ولا تفكير في عاقبة ولا يؤمل في فراخه ما يؤمل الانسان في ولده من العز والبر والرفد وبقاء الذكر . فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعلة لا يعرفها هو ولا يفكر فيها وهي دوام النسل وبقاءه .

(انظر الى الدجاجة) كيف تهيج لحضن البيض والتفريخ وليس لها بيض مجتمع ولا وكر قط بل تنبعث لذلك بعثة فتنتفخ وتقاقى وتمتنع الديك نفسها وتمتنع من الطعام حتى يجتمع لها البيض وتحضنه وتفرخ فلم كان ذلك منها الا لأقامة النسل ولا روية لها ولا فكر في عاقبة .

(فكر في خلق البيضة) وما فيها المح الأصفر الخاثر والماء الأبيض الرقيق فبعضه لينشو به الفرخ وبعضه ليغتذى به الى ان تنجاب عنه البيضة وما في ذلك من التدبير فأنه لما كان نشو الفرخ في تلك القشرة المستحصفة التي لامساغ لشيء اليها جعل معه في جوف البيضة من الغذاء ما يكفي به الى خروجه منها كمن يحتبس في حصن حصين لا يوصل الى ما فيه فيجعل معه من القوت ما يكتفي به الى خروجه منه .

(فكر في حوصلة الطائر) وما قدرت له فأن مسلك الطعم الى القانصة ضيق لا ينفذ فيه الطُعم الا قليلا قليلا فلو كان الطائر لا يلتقط حبة ثانية حتى تصل الأولى الى القانصة لطال ذلك عليه فمتى كان يستوفى طعمه وانما يختلسه اختلاساً لشدة الحذر فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة امامه ليوعى ما ادرك فيها من الطعم بسرعة ثم ينفذ الى القانصة على مهل . وفي الحوصلة ايضاً خصلة اخرى فأن من الطير ما يحتاج ان يزق فراخه فيكون رده الطعم من قرب اسهل عليه .

فأن كان اختلاف الألوان والأشكال في الطير انما يكون من قبل امتزاج الأخلاط واختلاف مقاديرها بالمرج والأهمال . فهذا الوشي الذى تراه في الطواويس

والتدرج والدراج على استواء ومقابلة كنحو ما يخط بالأقلام كيف يأتي به الامتزاج المهمل على شكل واحد لا يختلف .

تأمل ريش الطير كيف هو فأنك تراه منسوجا كنسج الثوب من سلوك دقاق قد قد الف بعضها الى بعض كتأليف الخيط الى الخيط والشعرة الى الشعرة ثم ترى ذلك النسج اذا مددته ينفتح قليلا ولا ينشق ليتداخله الريح فيقل الطائر اذا طار . وترى وسط الريشة عموداً غليظاً متيناً قد نسج عليه ذلك كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته وهي القصبة التي تكون في وسط الريشة وهو مع ذلك اجوف ليخف على الطائر فلا يعوقه عن الطيران .

هل رأيت هذا الطائر الطويل الساقين وعرفت المنفعة له في طول ساقيه فأنه يرعى اكثر ذلك في ضحضاح فتراه يركز على تينك الساقين كأنه زبية فوق مرقب فيتأمل ما يدب في الماء فأذا رأى شيئاً من حاجته خطا خطاً رفيقا حتى يتناوله . ولو كان قصير القائمتين كان حين يخطو نحو الصيد ليأخذه يشق بطنه الماء فيثوره ويذعر منه الصيد فيتفرق عنه فخلق له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه .

تأمل ضرباً من التدبير في خلق الطير فأنك تجد كل طائر طويل الساقين طويل العنق وذلك ليتناول طعامه من الأرض ولو كان طويل الساقين قصير العنق لما استطاع ان يتناول شيئاً من الأرض وربما اعين مع طول العنق بطول المنقار ليزداد المطلب عليه سهولة وله امكاناً افلا ترى انك لا تفتش شيئاً من الخلقة الا وجدته على غاية الصواب والحكمة .

(انظر الى العصافير) كيف تطلب اكلها بالنهار كله فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعاً معداً بل تناله بالحركة والطلب وكذلك تجد الرزق كله فسبحان

الذي قدره كيف فرقه وبعده ولم يجعله مما لا يقدر عليه اذ جعل بالخلق الحاجة اليه ولم يجعله مبذولاً فينال بالهوينا اذا كان لا صلاح للخلق فى ذلك . فأنه لو كان يوجد مجموعاً معداً كانت البهائم ستكب عليه ولا تقلع عنه حتى تبشم فتهلك وكان الناس سيصيرون بالفراغ والكفاية الى غاية الأشر حتى يكثر الفساد وتظهر الفواحش.

اعلمت ما طُعم هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج الا ليلا كمثل البوم والخفاش والهام فأنه يقال ان معاشها فى هذ الجو من البعوض والفراش واشباه الجراد واليعاسيب وغيرها وذلك ان هذه الضروب مبثوثة فى الجو لا يخلو منها موضع واعتبر ذلك بأنك اذا وضعت السراج بالليل فى صدح او عرصة دار اجتمع عليه من هذه الضروب شيء كثير فمن اين يأتي ذلك كله الا من القرب .

فأن قيل انه يأتي من الصحاري والبراري قيل له كيف يوافى تلك السرعة من موضع بعيد وكيف يبصر من ذلك البعد سراجاً فى دار محفوفة بالدور فيقصد اليه مع ان هذه الضروب ترى عياناً تتهافت على السراج من قرب فيدل ذلك على انها منتشرة فى كل موضع من الجو . وهذه الأصناف من الطير تلتمسها اذا خرجت فتتقوت بها فانظر كيف وجه الرزق لهذه الطير التى لا تخرج الا بالليل من هذه الضروب المنتشرة فى الجو . واعرف مع ذلك المعنى في خلق الله تعالى هذه الضروب التي عسى ان يظن ظان انها فضل لا معنى لها . خلق الخفاش خلقة عجيبة بين خلقة الطير وذوات الأربع بل هي الى ذوات الأربع اقرب فأنه ذو اذنين ناشرتين واسنان ووبر وهو يحيض ويحبل ويلد اولاداً ويرضع ويبول ويمشي اذا مشى على اربع وكل هذا خلاف صفة الطير . وهو ايضاً مما يخرج بالليل ويتقوت بما يسري في الجو من الفراش وما اشبهه .

وقد قال قائلون لا طعم للفراش وما اشبهه وقال قائلون لا طعم للخفاش وان

غذاءه من النسيم وحده وهذا ينكر من وجهين احداهما خروج ما يخرج من الثفل والبول فأن هذا لا يكون الا من طعم . والأخرى انه ذو اسنان ولو كان لا يطعم لم يكن للأسنان معنى وليس من الخلقة شيءٌ لا طعم له .

فاما المآرب فيه فموصوفة في كتب الطب حتى ان زبله يدخل في بعض الاكحال ومن اعظم الارب فيه خلقته العجيبة الدالة على قدرة الخالق جل ثناؤه وتصرفها في كل ما شاء لضروب من المصلحة .

تحدث رجل صدوق عن هذا الطير الصغير الذي يقال له ابن تمرة هو الدخل انه قد كان عشش في بعض الشجرة فنظر الى حية عظيمة قد اقبلت نحو عشها شاحية فاغرة فاها لتبتلعه فبينا هو يتقلب ويضطرب في طلب الحيلة للنجاة منها اذ وجد حسكة فحملها فالقاها في فم الحية فلم تزل تلتوى وتتقلب الى ان ماتت افرأيت لو لم يُحَدّث بهذا الحديث اكان يخطر ببالك ان يكون من حسكة مثل هذه المنفعة العظيمة فاعتبر بها في كثير من الاشياء يكون فيها منافع لا تعرف الا عند الحادث يحدث والخبر يسمع .

(انظر الى النحل) واحتشاده فى صنعة العسل وتهيئة البيوت المسدسة على عمل ما يصلح لصنعته وما يرى في ذلك من دقايق الفطنة التى وصفها المتكلمون في الطبايع فانك اذا تأملت العمل رأيته عجيباً لطيفاً واذا نظرت الى المعمول وجدته شريفاً عظيماً موقعه من الناس واذا رجعت الى العامل وجدته غبيا جاهلاً بنفسه فضلاً عما سوى ذلك . ففى هذا اوضح الدلالة على ان الصواب والحكمة فى هذه الصنعة ليس للنحل بل للذى طبعه عليها وسخره فيها لمصلحة الانسان .

(انظر الى هذا الجراد) ما اضعفه واقوى فمله فأنك اذا تأملت خلقته رأيته كأضعف الاشياء واذا ازدلفت عساكره نحو بلدة من البلدان لم يستطع احد ان

يحميها منه . الا ترى ملكاً من ملوك الارض لو جمع خيله ورجله ليحمي بلدة من الجراد لم يقدر على ذلك افليس ذلك من الدلائل على قدرة الخالق انه يبعث اضعف خلقه على اقوى خلقه فلا يستطيع دفعه .

ثم انظر اليه كيف ينساب على وجه الارض مثل السيل فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر حتى يستر نور الشمس بكثرته فلو كان هذا مما يصنع بالايدي كصنعة البشر متى كانت تجتمع منه مثل هذه الكثرة وفي كم من سنة كانت ترتفع فاستدلل بذلك على القدرة التي لا يؤدها شيء ولا يكبر عليها .

(تأمل خلق السمك) ومشاكلته للأمر الذي قدر ان يكون عليه فأنه خلق غير ذي قوايم لأنه لا يحتاج الى المشي اذ كان مسكنه الماء وخلق غير ذي رية لأنه لا يستطيع ان يتنفس وهو منغمس في اللجة وجعلت له مكان القوايم اجنحة شداد يضرب بها من جانبيه كما يضرب النوتي بالمجاذيف من جانبي السفينة وكسى جسمه جلوداً متاناً متداخلة كتداخل الدروع والجواشن لتقيه من الآفات واعين بفضل حس في الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعم من بعد بعيد فينتجعه والا فكيف يعلم به وبموضعه . وقد ذكر ارسطاطاليس ان بين فيه الى صماخيه منافذ فهو يعب الماء بفيه ويرسله من صماخيه فيتروح الى ذلك كما يتروح غيره من الحيوانات التي تنسم هذه النسيم .

فكر في كثرة نسل السمك وما خص به من ذلك فأنك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى عدده كثرة والعلة في ذلك ان يتسع لما يغتذي به من اصناف الحيوانات فان اكثرها تاكل السمك حتى السباع ايضاً فانك ترى في حافات الآجام عاكفة على الماء الصافي لتصيد السمك فاذا مر بها خطفته فلما كانت السباع تاكل السمك والطير تاكل السمك والناس ياكلون

السمك والسمك يأكل السمك وكان في البحر ذوات لاطعام لها الا السمك فالتدبير فيه ان يكون على ماهو عليه من الكثرة .

واذا اردت ان تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين فانظر الى ما في البحار من ضروب السمك ودواب الماء والأصداف التي لا تحصى كثرة ولا يعرف منافعها الا الشئ بعد الشئ يدركه الناس باسباب تحدث كما قد يقال في صبغ القرمز انه انما عرف بان كلبة كانت تجول على شاطئ البحر بصور فوجدت شيئاً من الذى يسمى الحلزون فاكلته فاختضب خطمها بدمه فنظر الناس الى حسنه فاتخذوه صبغاً للقز واشباه هذا مما يقع الناس عليه حالاً بعد حال.

(انصرف الآن الى خلق الانسان) وما فيه من الحكمة وما فيه من الدلالة على التدبير والعمل فأول ذلك ما يدبر فيه من الجنين من الرحم حين لا حيلة عنده في تلمس غذاء ولا دفع اذى فأنه يجري اليه من دم امه ما يغذوه كما يغذوالماء النبات فلا يزال ذلك غذاءه حتى اذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوى اديمه على مباشرة الهواء وبصره على ملاقاة الضوء هاج الطلق بأمه وازعجه اشد ازعاج واعنفه حتى يولد فأذا ولد صرف ذلك الذي كان يغذوه من دم امه الى ثدييها فانقلب الى ضرب آخر من الغذاء هو اشد موافقة للمولود من الدم اعنى اللبن فيوافيه اللبن في وقت حاجته اليه فأنه حين يولد فقد تلمض وحرك شفتيه للرضاع فيجد ثدي امه كالاداوتين المعلقتين لحاجته فلايزال يغتذى باللبن مادام رطب البدن رقيق الامعاء حتى اذا تحرك واحتاج الى غذاء فيه صلابة ليشتد عظمه ولحمه طلعت عليه الطواحين التي هي الاسنان ليمضغ بها الطعام فيلين عليه ويسهل اساغته فلا يزال كذلك حتى يدرك فأذا ادرك وكان ذكراً طلع الشعر في وجهه وكان ذلك هو علامة الذكر وعز الرجل الذي يخرج به من حد الصبي

وشبه النساء وان كانت انثى بقي وجهها نقياً من الشعر لتبقى لها البهجة والنضارة التى تحرك الرجال لما فيه من دوام النسل .

(وفكر الآن في امر الانسان) وما يُدَبَّر به في هذه الاحوال المختلفة هل ترى مثله يمكن ان يكون عليه بالاهمال افرأيت لو لم يجر اليه ذلك الدم وهو في الرحم الم يكن سيذوي ويجف كما يجف النبات اذا فقد الماء ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه الم يكن يستبقي في الرحم كالموؤد في الارض ولو لم يوافه اللبن مع ولادته الم يكن سيموت جوعاً او يغتذي بغذاء لا يلائمه ولا يصلح عليه بدنه ولو لم تطلع له الاسنان في وقتها الم يكن سيمتنع عليه المضغ للطعام واساغته او يقيم على الرضاع ولا يشتد بدنه ولا يصلح لعمل ثم يشغل امه بنفسه عن تربية ولدٍ غيره ولو لم يكن شعر يخرج في وجهه في وقته الم يكن سيبقى في هيئة الصبيان والنساء فلا يري له جلالة ولا هيبة ولا وقار فمن الذي كان يرصده حتى يوافيه بكل شئ من هذه المآرب في وقته الا الذي انشاه خلقاً بعد اذ لم يكن ثم توكل بمصلحته بعد اذ كان ولئن كان الاهمال يأتي بمثل هذا التدبير فقد نجد في القياس ان يكون العمدة والتقدير يأتى بالخطا والمحال لانه ضد الاهمال وهذا خلف من القول .

(فكر في امر الانسان في باب آخر) وهو ولادته حين يولد غبيا غير ذي عقل وفهم فأنه لو كان يولد عاقلاً فاهماً لانكر العالم عند ولادته حتى يبقى حيران تائه العقل اذا رأي ما لا يعرفه وورد على ما لم ير مثله فاعتبر ذلك بان من سبي من بلد الى بلد وهو متحنك عاقل يكون كالواله الحيران ولا يتشرع في تعليم الكلام وقبول الادب كما يتشرع الذي ينشأ صغيرا . ثم لو كان يولد عاقلا وجد غضاضة ان يرى نفسه محمولا ومرضعاً ومعصباً بالخرق ومسجى في المهد على انه لا يستغني عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد ثم كان لا

يوجد له من الحلاوة والموقع فى القلوب ومن الرحمة والفرح ما يوجد للطفل فصار المولود يدخل العالم غبياً غافلا عما فيه الناس فتلقي الاشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزيد في المعرفة قليلا قليلا وشيئاً بعد شيء حتى يألف الاشياء ويتمرن عليها فيخرج من حد التأمل لها والحيرة الى التصرف فى الامور والاضطراب في المعاش .

وفي هذا وجوه أخر فانه لو كان يولد تام العقل مستقلا بنفسه لذهب موضع تربية الاولاد وما دُبّر ان يكون الوالدين في الاشتغال به من المصلحة وما توجب التربية للآباء على البنين من المكافاة بالبر والعطف عند حاجتهم الى ذلك منهم ثم كان الاولاد لا يألفون آباءهم ولا الآباء يألفون ابناءهم لانه كان الاولاد يستغنون عن تربية الآباء وحياطتهم فيتفرقون عنهم حين يولدون حتى لا يعرف الرجل اباه ولا امه ولا يعرفه ابوه وامه ولا يمتنع من نكاح امه واخته اذا كان لا يعرفها واقل ما يكون من ذلك ان يخرج من بطن امه وهو يعقل فيرى منها ما لا يحل له ولا يحسن به ان يراه .

أوَلا يرى كيف اقيم كل شيء من الخلقة على غاية الصواب وتنكب فيه الخطأ دقيقه وجليله . وتخبر كتب الطب والطبايع ان الجنين يخلق من ماء الذكر والانثى جميعا فالذكر يقذف ماءه في رحم الانثى والانثى تقذف ماءها في رحمها لا يعدوها ثم يختلطان في الرحم فيكون منهما الجنين باذن الله وقدرته .

وانظر كيف جعلت آلات الجماع فى الذكر والانثى جميعاً على ما يشا كل ذلك فجعلت للذكر اذا كان يحتاج ان يقذف ماءه فى غيره آلة ناشزة تمتد حتى توصل النطفة الى الرحم وجعلت للانثى اذا احتاجت الى ان تشتمل على الماءين جميعا وتحمل الولد حتى يستحكم وعاء قعيراً يصلح لذلك .

فكر في اعضاء البدن اجمع وتقدير كل عضو منها للارب فيها فاليدان للعلاج والرجلان للسعي والعينان للاهتداء والاذنان للسمع والانف للشم والفم للاغتذاء والمعدة للهضم والكبد للتخليص والمنافذ لنفض الفضول والاوعية لحملها والفرج لاقامة النسل . وكذلك جميع الاعضاء اذا تاملتها وجدت الكل منها قد قدّر على صواب وحكمة .

فان زعمت ان هذا من فعل الطبيعة سألناك عن هذه الطبيعة اهي شيء له علم وقدرة على هذه الافعال ام ليست كذلك فان اوجبت لها العلم والقدرة فما امتناعك من اثبات الخالق فان هذه هي صفة الخالق . فان زعمت انها تفعل هذه الافعال بغير علم وعمد فهو محال لان افعالها ماقد ترى من الصواب والحكمة . فعلم ان هذا الفعل للخلاق العظيم وان الذي سميته طبيعة هي سنته . سببه من خلقته الجارية على ما اجراها عليه (١)

(فكر في وصول الغذاء الى البدن) وما فيه من التدبير فان الطعام يصير الى المعدة فتطحنه المعدة وتبعث بصفوه الى الكبد في عروق دقاق واشجة بينهما قد جعلت كالمصفاة للغذاء لكيلا يصل الى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها وذلك ان الكبد رقيقة لا تحتمل العنف ثم ان الكبد تقلبه دما وتنفذه الى البدن كله في مجار مهيأة لذلك بمنزلة المجاري التي تهيأ الماء حتى يطرد في الارض كلها وينفذ ما يخرج من الخبث والفضول الى مغايض قد اعدت لذلك فما كان منه من جنس المرة الصفراء اجري الى المرارة التي هي مقرونة بالكبد وما كان من

(١) هنا في الهامش ما نصه • والطبيعة على قولك تقتضي اما فاعلاً او مفعولاً فان اردت الفاعل لزم ان تجعلها متقدمة لمفعولاتها وهذا كقولنا في الباري • وان اردت مفعولاً فلكل مفعول فاعل فما ينكر ان يكون الله • وان قلت ان الطبيعة والطبايع لم تزالا اتيت بمحال وقلت باثنين قديمين •

جنس السوداء اجري الى الطحال وما كان منه من البلة والرطوبة اجري الى المثانة [تامل حكمة التدبير] في تدبير تركيب البدن ووضع هذه الاعضاء مواضعها واعداد هذه الاوعية فيه لتحمل تلك الفضول ولا تنتشر في البدن فتسقمه ولو اخذت تمثالا صغيرا من شبه او نحاس اوشمع فاردت ان تجعله كبيرا هل كان يمكنك ذلك الا بان تكسره وتصوغه من الرأس صياغة اخرى .

افلا ترى جسم الصبي كيف ينمو بجميع اعضائه وهو ثابت على شكله وعينه وهيئته لا يتزيد ولا ينتقص واعجب من هذا تصويره في الرحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد يخرج سويا مستويا بجميع ما به قوامه وصلاحه من الاحشاء والجوارح والعوامل والحوامل الى ما في تركيب اعضائه من العظام واللحم والشحم والمخ والعصب والعروق والغضاريف من دقائق التركيب والتقدير والحكمة .

انظر الى ما خص به الانسان في خلقه تشريفاً وتفضيلا له على البهايم فانه خلق ينتصب قائما ويستوي جالسا ليستقبل الاشياء بيديه وجوارحه ويمكنه العلاج والعمل فيها ولو كان مكبوبا على وجهه كذوات الاربع لما استطاع ان يعمل شيئاً من الاعمال. ولهذا المعني صار الانسان اسمه باليونانية مشتقاً من النظر الى العلو كما قال فاثلون او من تأمل الامور العلوية كما قال افلاطون .

انظر الى هذه الحواس التي منها تُشْرِفُ النفوسَ على الاشياء كيف جعلت في الرأس كالمصابيح فوق المنارة ليتمكن من مطالعة الاشياء ولم يجعل في الاعضاء التي تمتهن كاليدين والرجلين فتعرض للآفات التي تصيبها من مباشرة العمل والحركة . ولا في الاعضاء التي تجئ وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر تلقيها واطلاعها نحو الاشياء فلما لم يكن لها في شيء من هذه الاعضاء مواضع كان الرأس اهنا المواضع لها . وقد احسن في وصف الرأس بعض الحكماء فقال هو

صومعة الحواس . من جعل الحواس خمساً الا من جعل المحسوسات مثل ذلك قدّرها خمساً تلقى خمساً لكيلا تفوت الحواس شيء من المحسوسات .

فأن قلت فلعل في الاجسام محسوسات اخرى ليس تلقاها حواس تدركها (قلنا) محال ان يكون محسوسات ليس تلقاها حواس تدركها لانها كانت تكون فضلا لا معنى له وليس في الخلقة شيء لا معنى له كالذي حكمت به الحكماء وشهدت عليه المحنة . لم خلق البصر الا ليدرك الالوان والاشكال والاضواء . ولم خلق السمع الا ليدرك الاصوات فلو كانت الالوان ولم يكن بصر يدركها هل كانت تكون في الالوان منفعة ولو كانت الاصوات ولم يكن سمع يدركها هل كان في الاصوات ارب وكذلك سائر الحواس . ثم هذه كلها ايضا ترجع متكافئة فانه لو كان بصر ولم يكن الوان لم يكن للبصر معنى ولو كان سمع ولم يكن اصوات لم يكن للسمع موضع .

انظر كيف قدر بعضها تلقاء بعض فجعل لكل حاسة محسوساً تعمل فيه ولكل محسوس حاسة تدركه . وفكر مع هذا في اشياء جعلت متوسطة بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس الا بها كمثل الضياء والهواء فانه لو لم يكن ضياء يظهر اللون للبصر لم يكن البصر يدرك اللون ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت الى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت فهل يخفى على من صح نظره ان مثل هذا الذي وصفنا من تهيئة الحواس والمحسوسات بعضها تلقاء بعض وتهيئة اشياء اخرى بها تتم الحواس لا يكون الا بعمد وتقدير .

فكر في الذي عدم البصر من الناس وما يناله من الخلل في اموره فانه لا يبصر موضع قدمه ولا يعرف ما بين يديه ولا يفرق بين الالوان ولا بين المنظر الحسن والقبيح ولا ينذر بحفرة ان هجم عليها ولا بعدوّ ان يبعد ولا يعرف ان اهوى

اليه بسيف ولا يكون له سبيل الى تعلم شيء من هذه الصناعات كالتجارة والكتابة والصياغة حتى لولا بقاء ذهنه لكان بمنزلة الحجر الملقي . وكذلك من عدم السمع قد يختل في امور كثيرة فأنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة الاصوات واللحون الشجية والمطربة وتعظم المؤنة على الناس حتى يتبرموا به ولا يسمع شيئاً من اخبار الناس واحاديثهم حتى يكون كالغائب وهو شاهد وكالميت وهو حي .

فأما من عدم العقل فانه يلحق بمنزلة البهائم بل يجهل كثيراً مما تهتدي اليه البهائم افلا ترى كيف صارت هذه الجوارح والعقل وسائر الخلال التي بها صلاح الانسان والتي لو فقد منها شيء لعظم ما يناله في ذلك من الخلل فيوافي في خلقه على التمام حتى لا يفقد منها شيئاً ولم كان ذلك لولا ان خلقه بعمد وتدبير .

والقول المجمل ان الصانع جل ثناؤه اذا ثبت انه حكيم عدل زالت عنه التهمة فيما فعله اذ هو اعرف بمنافع الانسان ومصلحته وعواقب اموره وان الصانع جل عن التمثيل كطبيب حاذق مأمون الخطا يعالج بما فيه مضض والم ولا ينسب الى قساوة قلبه ولا الى جوره واضراره بالعليل ولا الى الخطأ (١)

فان قلت ولم صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح حتى يناله مثل هذا الخلل قلنا للتأديب والموعظة للرافع ذلك به ولغيره بسببه كما قد يؤدب ملوك الارض باشياء التنكيل والموعظة فلا ينكر ذلك عليهم بل يحمد ويستصوب من تدبيرهم . ثم ان الذين بهم هذه البلايا من الثواب في الآخرة ان صبروا وشكروا وانابوا ما يستصغرون معه ما ينالهم منها حتى انهم لو خيروا بعد البعث لاختاروا ان يردوا الى البلاء ليزدادوا من الثواب .

(١) من قوله والقول المجمل الى هنا مثبت في الهامش ويظهر انه من الأصل بعد قوله بعمد وتدبير اه مصححه .

(فكر في الاعضاء) التى خلقت افراداً وازواجاً وما فى ذلك من الصواب والحكمة فالرأس مما خلق فرداً ولم يكن خيراً ان يكون اكثر من ذلك الاترى انه لو اضيف الى رأس الانسان رأس آخر كان ثقلا عليه من غير حاجة اليه لان جميع الحواس التى يحتاج اليها مجتمعة فى رأس واحد. ثم كان اللسان ينقسم قسمين او كان له رأسان فأن تكلم من احدهما كان الآخر معطلا لا ارب فيه وان تكلم منهما جميعا بكلام واحد كان احدهما فضلاً وان تكلم من احدهما بغير الذي يتكلم به من الآخر لم يدر السامع بأي ذلك يأخذ واشباه هذا من الاختلاط. واليدان مما خلق ازواجاً ولم يكن للانسان خير ان يكون له يد واحدة لان ذلك يخل به فيما يعالج من الاشياء . الا ترى ان النجار والبناء لو شلت احدى يديه لم يستطع ان يعالج صناعته فأن تكلف ذلك لم يحكمه ولم يبلغ به ما يبلغه اذا كان له يدان يتعاونان على العمل .

(فكر في الصوت) وتهيئة آلاته والكلام وانتظامه والحروف وما هي لها من المخارج واعينت به من الهواء وكيف جعل شئ من الآلات لما خلق له(١) فكر فى تهيئة آلات الصوت والكلام فى الانسان فالحنجرة كالأنبوب لخروج الصوت واللسان والشفتان والاسنان لصياغة الحروف والنغم الا ترى ان من سقطت اسنانه لم يقم السين ومن تقضب شفته لم يصح الفاء ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء فما احسن ما مثل الاولون مخرج الصوت بالمزمار الاعظم فشبهوا الحنجرة بقصبة المزمار وشبهوا الرئة بالزق الذي ينفخ به من تحته ليدخله الريح وشبهوا المضلات التى تقبض على الرئة لخروج الصوت من الحنجرة بالاكف الذى تقبض على الزق حتى تجرى الريح فى المزمار وشبهوا الشفتين والاسنان

[١] من قوله فكر فى الصوت الى هنا مثبت فى الهامش ايضاً

التي تصوغ الصوت حروفاً ونغماً بالاصابع التى تختلف على فم المزمار فيصوغ صفيره الحاناً غير انه وان كان مخرج الصوت يشبه المزمار للدلالة والتعريف فان المزمار بالحقيقة هو المشبه بمخرج الصوت لان المزمار صناعي والصوت طبيعي والصناعة هي التي تحكى الطبيعة. ولكنه لما كانت الصناعة اظهر واعرف عند العامة من الطبيعة صارت افعال الطبيعة تمثل بأفعال الصناعة ليفهم ويوقف عليها. فاذا كانت الصناعة هي التى تتعجب من اللطف والحكمة فيما يحكى الطبيعة فبالحري ان يتعجب من الطبيعة واطف افعالها وائن كان الاعمال يضعف عما تأتي به الصناعة لهو عما تأتي به الطبيعة اضعف قد انبأنا عما فى هذه الاعضاء من الغناء في صفة الكلام واقامة الحروف. وفيها مع الذي ذكرنا مآرب اخرى ففي الحنجرة يسلك هذا النسيم الى الرئة فيروح عن الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع وباللسان تذاق الطعوم فيميز بينها ويعرف كل واحد منها وفيه مع ذلك معونة على اساغة الطعام والشراب وبالاسنان يمضغ الطعام فيلين ويسهل ابتلاعه وهى بعد كالسند للشفتين تمسكهما وتدعمهما من داخل الفم فاعتبر ذلك بأنك ترى من سقطت اسنانه مسترخي الشفة مضطربها وبالشفتين يترشف الشراب حتى يكون الذي يدخل منه بقصد وقدر لا يثج ثجا فيغص به الشارب وينكا فى الجوف ثم هما بعد كالباب او كالطبق على الفم يفتحهما الانسان اذا شاء ويطبقهما اذا شاء وبهما حسن منظر الفم الا ترى الذى قطع شفتاه قبح منظره غاية.

ففيما وصفنا من هذا بيان ان كل واحد من هذه الاعضاء تنصرف الى وجوه من المآرب كما تنصرف الاداة الواحدة الى اعمال شتى وذلك كالفاس يستعمل في عمل النجارة والحفر والقتال وغيرها من الاعمال. وكذلك الشفة تصلح للتقبيل ولمص الماء واقامة بعض الحروف وجمع المخارج ودفعها ولغير ذلك.

(اما رأيت الدماغ) اذا كشف عنه كيف تجده قد لف بحجب بعضها فوق بعض لتصونه عن الاعراض وتمسكه من ان يضطرب ثم اطبقت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة لتقيه حد الصدمة والصكه تقع بالرأس ثم جلب الجمجمة بالجلد والشعر الذى هو فروة الرأس ليسترها من افراط الحر والبرد. فمن خص الدماغ بهذا التحصين وقدره هذا التقدير الامن خلقه فعلم انه ينبوع الحس والمستحق لكل هذه الحيطة بمنزلتها من البدن ومحل العقل فيه .

من جعل الجفن على العين كالغشاء والاشفار كالاشراج واولجها فى هذا الغار واظلها بالحجاج وما عليه من الشعر .

من غيب الفؤاد في جوف الصدر وكساه المدرعة التى هي غشاوة وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب يقى ولا يثقل وجعل شغافه في حق يصونه وامره على الجوارح والحواس فأليه ينتهى ما يؤديه بل من جعله مسكناً لجوهر الروح .

من جعل فى الحلق منفذين احدهما للصوت وهو الحلقوم الواصل الى الرئة والآخر للغذاء وهو المرى الواصل الى المعدة وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام ان يصل الرئة فيبتل به. من جعل الرئة مروحة للفؤاد لا تفتر ولا تخل لكيلا تنحصر الحرارة في الفؤاد فيؤدى الى التلف .

من جعل لمنافذ البول والغائط اشراجا يضمها ويضبطها لكيلا تجري جرياً دائما فيفسد على الانسان عيشه وكم عسى ان يحصى المحصى من هذا بل الذى لا يحصى منه اكثر .

لم صارت المعدة عصبانية شديدة الا انها قدرت لهضم الطعام الغليظ ولم صارت الكبد رقيقة ناعمة انها قدرت لقبول صفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو الطف من عمل المعدة .

لم صار المخ الرقيق محصناً فى انابيب العظام الا لتحيطه وتصونه . لم صار الدم السيال محصوراً فى العروق منزلة الماء فى الظروف الا لتضبطه فلا يفيض . لم صار الأظفار على اطراف الاصابع الا وقاية لها ومعونة على العمل . لم صار داخل الأذن ملتويا كهيئة اللولب الا ليطرد فيه الصوت حتى ينتهى فيه الى السمع ولتنكسر حمية الريح فلا تنكأ فى المسامع كما قال آخرون . لم حمل الانسان على فخذيه هذا اللحم الوثير الا ليقيه من الأرض فلا يألم من الجلوس عليها كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه اذا لم يحل بينه وبين الأرض حائل .

من جعل الأنسان ذكراً وانثى الا من خلقه متناسلاً . من جعله متناسلاً الا من جعله ميتاً . من اعطاه آلات العمل الا من جعله عاملاً من جعله عاملا الا من جعله محتاجا من ضربه بالحاجة الا من توكل بتقويمه من خصه بالفهم الا من اوجب له الجزاء . من وهب له الحيلة الا من ملّكه من ملكه الخلق الا من الزمه الحجة من يكفيه مالا تبلغه حيلته الا من لا يُبلَغُ مدى شكره تبارك وتعالى لا تحصى نعمه .

ذكر ارسطاطاليس فى صنعة خلق الأنسان ان فى الفؤاد ثقبا مواجهة نحو الثقب التى فى الرئة سواء ليحمل الريح من الرئة فتروح عن الفؤاد حتى انه لو اختلف الثقب وتزايل بعضها عن بعض لما وصلت الريح الى الفؤاد فكان فى ذلك هلاك الأنسان . افيستجيز ذو فكرة وروية ان يزعم ان مثل هذا يكون بالاهمال اولا يجد شاهداً من قلبه يزعه عن هذا القول . لو رأيت فرداً من مصراعي باب فيه كلوب اكنت تتوهم انه كان هكذا بلا معنى بل كنت ستعلم انه مصنوع تلقاء فرداً آخر فيه رزة ليكون فى اجتماعهما ضرب من المصلحة وهكذا تجد الذكر من الحيوان كانه فرد من زوج قد جعل له فرج مهيء تلقاء فرج الانثى يلتقيان لما فيه دوام النسل وبقاؤه .

فتباً وخيبة لأفيقوروس واشباهه حين عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة

حتى انكروا التدبير والعمد فيها. لو كان فرج الرجل مسترخياً ابداً كيف كان يصل الى قعر الرحم حتى يقر النطفة فيه . ولو كان منعظا ابداً كم يكون الرجل يتقلب في الفراش ويمشى بين الناس وشيء شاخص امامه ثم كان في ذلك مع قبح المنظر تحريك الشهوة فى كل وقت من النساء والرجال جميعا فيدعوهم تحريكهما الى المباضعة وهـذا على الاوان يؤديهم الى الهلاك فقدر ان يكون مسترسلا في أكثر ذلك لكيلا يبدو للبصر في كل وقت ولا يكون على الرجل فيه مؤنة وجعلت فيه قوة الانتصاب عند الحاجة الى ذلك لما فيه من دوام النسل وبقائه.

أليس من حسن التقدير في البناء ان يكون الخلاء في استر موضع من الدار فهكذا تجد المنفذ المهيأ الخلاء من الانسان فى استر موضع منه فأنه ليس بارزاً من خلفه ولا ناشزاً بين يديه بل هو مغيب فى موضع غامض من البدن يلتقى عليه الفخذان بما عليهما من اللحم فتواريانه فأذا حضرت الحاجة الى الخلاء وجلس لها الانسان تلك الجلسة التى ذلك الموضوع منه منتصبا متهيأ لانحدار الثفل .

(فكر فى هذه الطواحن) التي خلقت للأنسان كيف جعلت الأسنان منها حداداً لقطع الطعام وهتكه وجعلت الأضراس عراضاً لرضه ومضغه فلم ينقص واحد من الصنفين اذا كان يحتاج اليهما جميعا .

[تأمل التدبير فى خلق الشعر والأظفار] فأنهما اذا كانا مما يطول ويكبر حتى يحتاج الى تخفيفه اولاً فأولا جعلا عديمى الحس لكيلا يؤلم الأنسان الأخذ منهما ولو كان قص الشعر وتقليم الاظفار مما يوجد له حس والم كان الأنسان من ذلك بين امرين كريهين اما ان يدع كل واحد منهما يطول حتى يفدحه ويثقل عليه واما ان يخففه بوجع والم يناله منه. لونبت الشعر في العين الم يكن سيعمي البصر ولو نبت فى الفم الم يكن سينغص على الأنسان طعامه وشرابه

ولو نبت في باطن الكف لم يكن سيعوقه عن صحة اللمس وبعض الأعمال التي تعمل بالراحة كالمصافحة وشبهها. ولو نبت على فرج المرأة وعلى عوف الرجل لم يكن سيفسد على الأنسان لذة الجماع فانظر كيف تنكب بالشعر هذه المواضع لما في ذلك من المصلحة وانبته في المواضع التي هو لها زين. ثم ليس هذا في الانسان فقط بل هو في البهيمة ايضاً فأنك ترى هذه المواضع خالية منه لهذا السبب بعينه.
افلا ترى الخلقة كيف تتخلى وجوه الخطأ والمضرة وتقع بوجوه الصواب والمنفعة ان المنانية واشباههم حين اجتهدوا في عيب الخلقة عابوا الشعر النابت في الركب والأبطين والفخذ والعانة وانما يكون هذا من الرطوبة تدفعها الطبيعة الى هذه المواضع فينبت فيها الشعر كما ينبت العشب في مستنقع الماء اولا ترى ان هذه المواضع استر واهيأ ~~لقبول~~ لقبول تلك الفضلة من غيرها.

ثم ان هذا بعد حمل الانسان من مؤنة هذا البدن وتكاليفه لما في ذلك من المصلحة فأن اهتمامه بتنظيف بدنه وكسح ما يعلوه من الشعر والدرن مما يكسر شرته ويكف عاديته وشغله عن بعض ما يخرجه اليه الفراغ والبطالة.

[فكر في الريق] والمنفعة فيه فأنه جعل يجري دائمًا الى الفم ليبل الحلق واللهوات فلا يجف فأن هذه المواضع لو جفت كان في ذلك هلاك الانسان ثم كان لا يستطيع ان يسيغ طعاماً اذا لم يكن في الفم بلة تنفذه يشهد بذلك قول ابقراط الرطوبة مطية الغذاء وقد يجري مثل هذه البلة الى مواضع أخر من المرة فيكون في ذلك رجاء فعل من الافعال الطبيعية.

[اعلمت ما في الاطفال من المنفعة في البكاء] فان من قول الاطباء ان في ادمغتهم رطوبة ان بقيت فيها احدثت عليهم احداثاً جليلة وان البكاء يسيل تلك الرطوبة من رؤسهم فيعقبهم ذلك الصحة في ابدانهم افليس قد جاز ان

يكون الطفل ينتفع بالبكاء وانت لا تعرف ذلك فهكذا يجوز ان يكون فى كثير من الاشياء منافع لا تعرفها فلا تقصر على الشيء انه لا منفعة فيه من قبل انك لا تعرفها فان كثيراً مما لا تعرفه انت يعرفه غيرك وكثيرا مما يقصر عنه علم المخلوق يحيط به علم الخالق سبحانه

طاش الوهم طيشة فقال لو كان بطن الانسان مشققا مثل القبا افتحه الطبيب اذا شاء فيعاين ما عرض من داء فيه ويدخل يده فيعالج ما اراد اصلاحه منه الم يكن اصلح من ان يكون مصمتا محجوبا من البصر واليد لا الطبيب يعرف ما يعرض فيه الا بدلالات غامضة كمثل البول والمجسة وما اشبه ذلك مما يكثر فيه الغلط والشبهة حتى يكون سبباً الموت . فقيل له لو هذا هكذاً كان اول ما فيه انه كان يسقط على الانسان الوجل من الامراض وانتظار الموت فيستشعر البقاء والسلامة فيخرجه ذلك الى العتو والاشر وقساوة القلب كما ذكرنا مراراً. ثم كانت الرطوبات التى في البطن سترشح وتتحلب فيفسد على الانسان مقعده ومرقده وثياب فضلته وزينته بل كان يفسد عليه عيشه . ثم ان المعدة والكبد والفؤاد انما تفعل افعالها بالحرارة الطبيعية المحتبسة في الجوف فلو كان فى البطن فروج تنفتح حتى تصل العين الى رؤيته واليد الى علاجه لوصل برد الهواء الى الجوف فباخت الحرارة الطبيعية وبطل عمل الاحشاء وكان في ذلك هلاكه. افلا ترى ان كل ما تذهب اليه الاوهام سوى ما جاءت به الخلقة خطأ وخطل (وكر فى هذه الأفعال الطبيعية)التى جعلت فى الأنسان تحمل من الطعم والنوم والجماع (١) وما دبر فيها فأنه قد جعل لكل واحد منها في الطباع لنفسه محرك

(١) هكذا ويظهران في العبارة تحريفاً وهي فى كتاب الحكمة فى المخلوقات للغزالي هكذا ثم فيما اى انظر فيما جبل عليه الانسان من الاحتياج الى المطعم والنوم والجماع . وهي ظاهرة اهـ

يقتضيه ويستحث به فالجوع يقتضي الطعم الذي به حياة البدن وقوامه والكرى يقتضي النوم الذي هو راحة البدن وجموم قواه والشبق يقتضي الجماع الذي يكون به دوام النسل وبقاؤه . فلو كان الأنسان انما يصير الى اكل الطعام لمعرفته بحاجة بدنه اليه ولم يجد من طباعه شيئاً يحفزه لذلك كان خليقاً ان يتوانى عنه احيانا لشغل او كسل حتى ينحل بدنه فيهلك كما قد يحتاج المرء الى الدواء والعلاج او شيء مما يصلح بدنه فيدافع به حتى يؤديه ذلك الى المرض او الموت . وكذلك لو كان انما يصير الى النوم بالفكر في حاجته الى راحة البدن واجمام قواه كان عسى ان يتثاقل عن ذلك ويدفعه حتى ينهك بدنه . ولو كان انما يتحرك للجماع بالرغبة في الولد كان غير بعيد من ان يفتر عنه حتى يقل النسل او ينقطع فأن من الناس من لا يرغب في الولد ولا يحفل به .

فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التي بها قوام الانسان وصلاحه محرك من نفس الطبيعة يحركه له ويحدوه عليه .

وقد وصفت الأطباء في كتب الطب القوى الأربع التي في البدن وافعالها فالجاذبة هي التي تتولى قبض الغذاء وايراده على المعدة . والممسكة هي التي تحبس الطعام ريثما يفعل الطعام فيه فعله . والهاضمة هي التي تطبخه وتستخرج صفوه وتبثه في البدن . والدافعة هي التي تحدر الثفل الفاضل بعد اخذ الهاضمة منه حاجتها . ففكر في تقدير هذه القوى المحاجة اليها والأرب فيها وما في ذلك من التدبير والحكمة فلولا القوة الجاذبة بم كان الانسان يتحرك لطلب الغذاء الذى به قوام البدن . ولولا الممسكة كيف كان الطعام يلبث في الجوف حتى تهضمه المعدة ولولا الهاضمة كيف كان ينطبخ حتى يخلص منه الصفو الذى يغذو به البدن ويسد خلله . ولولا الدافعة بم كان الثفل الذى تخلفه الهاضمة يندفع

ويخرج منه اولاً فأولاً .

افلا ترى كيف وكلت هذه القوى بالبدن والقيام بما فيه صلاحه فصار البدن بمنزلة دار الملك فيها له حشم وقوّام موكلون بالدار فواحد لاقتضاء حوائج الحشم وايرادها عليهم وآخر لقبض ما يرد وخزنه الى ان يعالج ويهيأ وآخر لعلاج ذلك ولتهيئة وتفرقته في الحشم وآخر لكسح ما في الدار من الاقذار والاقذاء واخراجه منها .

فالملك في هذا المثل هو الخلاق العليم مالك العالمين والدار هي البدن والحشم وهي الاعضاء والقوام هم هذه القوى الأربع . ولعلك ترى ذكرنا لهذه القوى وافعالها بعد الذى وصف في ذلك من كتب الطب فضلاً في القول وترديداً لأمر معروف وليس ذكرنا لهذه القوى على الجهة التى ذكرت في كتب الطب ولامذهبنا فيه ذلك المذهب لأن ذكرها هناك على مايحتاج اليه في صناعة الطب وتصحيح الأبدان وذكرها ههنا على ما يحتاج اليه في صلاح الدين وشفاء النفوس وتصحيح الدين كالذى اوضحنا بالوصف الشافي والمثل المضروب من التدبير والحكمة فيها .

تأمل هذه القوى التي في النفس وموقعها من الأنسان اعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ وسائر ذلك افرأيت لو نقص الأنسان من هذه الخلال الحفظ وحده كيف كانت تكون حاله وكم من خلل كان سيدخل عليه في اموره اذا لم يكن يحفظ ماله وما عليه وما اخذ وما اعطى وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من احسن اليه ومن اساء اليه وما نفعه وما ضره ثم كان لا يهتدى لطريق ولو سلكه مراراً لاتحصى ولا يعقل علماً لو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع ان يعتبر شيئاً على ما مضى بل كان خليقا ان ينسلخ من الأنسية الى البهيمية .

(انظر الى النعمة على الانسان) كيف موقع الواحدة منها دون الجميع . واعجب

من هذه النعمة على الانسان فى الحفظ النعمة عليه في النسيان فأنه لولاه ماسلا احد عن مصيبة ولا نقصت له حسرة ولا مات له حقد ولا استمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ولا رجا غفلة من سلطان ولا فترة من حاسد افلا ترى كيف جعل فى الانسان الحفظ والنسيان هما مختلفان متضادان وجعل له فى كل واحد منها ضرب من المصلحة وما عسى ان يقول الذين قسموا الاشياء بين خالقين متضادين وجعل له في هذه الاشياء المتضادة التى تراها تجتمع على ما فيه الصلاح والمنفعة .

فكر في هذا الخلق الذى خص به الانسان دون جميع الحيوان اعنى الحياء ما اكبر قدره واعظم غناه فلولا الحياء لم يُقْرَ الضيفُ ولم يوف بالعدات ولم تقض الحوائج ولم ينجز الجميل ولم يتنكب القبيح فى شيء من الاشياء حتى ان كثيراً من الامور المفترضة ايضاً انما تفعل للحياء فأن من الناس من لولا الحياء لم يرع حق والديه ولم يؤد امانة ولم يعف عن فاحشة . افلا ترى كيف وفّى الانسان جميع الخلال التى فيها صلاحه ورجاء اموره .

فكر فيما انعم الله تعالى به على الانسان فى هذا المنطق الذي يعبر به عما فى ضميره ويفهم عن غيره ما في نفسه ولولا ذلك كان بمنزلة البهيمة التى لا تخبر عن نفسها بشيء ولا تفهم عن مخبر شيئاً . وكذلك الكتاب الذى به تقيد اخبار الماضين للباقين واخبار الباقين للآتين وبه تجلد الكتب والعلوم والآداب وبه يعلق الناس ذكر ما يجرى بينهم من الحساب والمعاملات فلولا الكتاب انقطعت اخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست العلوم وضاعت الآداب وعظم ما يدخل على الناس من الخلل في امورهم والمعاملات التى تجرى بينهم واختل نظام العالم .

ولعلك ان تقول ان الكتاب مما يخلص الناس اليه بالحيلة والفطنة وليس مما اعطيه الانسان في خلقه وطباعه وكذلك الكلام انما هو شيء يصطلح عليه الناس

فيجرى بينهم فلذلك ما صارا يختلفان فى الامم المختلفة فلسان هؤلاء غيرلسان اولئك وكتاب اولئك غير كتاب هؤلاء والامور الطبيعية ليس بين الناس فيها اختلاف . فنقول فى جواب ذلك انه وان كان للانسان فى الامرين جميعاً فعل وحيلة فان الشيء الذى يبلغ ذلك الفعل والحيلة عطية وهبة من الله تعالى فى خلقته فانه لو لم يكن له لسان مهيء للكلام وذهن يهتدى به للأمور لم يكن ليتكلم ابداً . ولو لم يكن له كف واصابع مهيأة للكتاب لم يكن ليكتب ابداً واعتبر ذلك من البهايم التى لا كلام لها ولا كتاب .

(فكر فيما أُعطِيَ الانسانُ علمَه) وما منع منه فأنه اعطى جميع ما فيه صلاح دينه ودنياه ومما فيه صلاح دينه معرفة الخالق بالدلايل والشواهد القائمة فى الخلق ومعرفة الواجب عليه من العدل على الناس وبر الوالدين واداء الامانة ومواساة اهل الخلة واشباه ذلك مما قد توجد معرفته والاقرار به في الطبع والفطرة في كل امة . وكذلك اعطى الانسان علم مافيه صلاح دنياه كالزراعة والغراسة واقتناء الاغنام والانعام واستنباط المياه ومعرفة العقاقير التى يستشفى بها من ضروب الاسقام والمعادن التى يستخرج منها انواع الجواهر وركوب السفن والغوص في البحر وضروب الحيل فى صيد الوحوش والطير والسمك والتصرف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب وغير ذلك مما فيه صلاح امر محياه في هذه الدنيا فاعطى كل ما وصفناه من علم ما يصلح به دينه ودنياه ومنع ما سوى ذلك مما ليس من شأنه ولا في طبعه ان يعلمه كعلم الغيب وما هو كائن وبعض ما قد كان ايضاً كعلم ما فوق السماء وما تحت الارض وفي لجج البحار واقطار العالم وما في قلوب الناس وما في الارحام واشباه ذلك مما حجب عن الناس علمه فأنه وان كان اناس ادعوا علم هذه الامور فقد تبطل دعواهم بما يتبين من

خطئهم فيما يقضون عليه ويدعون علمه . فانظر كيف اعطى الانسان علم جميع ما يحتاج اليه لدينه ودنياه وحجب عنه ما سوى ذلك ليعرف قدره ونقصه وكلا الامرين لما فيه صلاحه .

(ومما ستر على الأنسان علمه مدة حياته) فأنه لو عرف مقدار عمره وكان قصيراً لم يتهن بالعيش مع ترقب الموت بل كان بمنزلة من قد فنى ماله اوقارب الفناء فقد استشعر الفقر والوجل منه على ان الذي يدخل على الانسان من فناء العمر اكثر مما يدخله من فناء المال لأن من فقد ماله يؤمل ان يستخلف عليه منه فيسكن الى ذلك ومن ايقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس . وان كان طويل العمر عرف ذلك ووثق بالبقاء فانهمك في اللذات والمعاصي وعمل على انه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب في آخر عمره وهذا مذهب لا يرضاه الله سبحانه من العباد ولا يقبله . الا ترى ان العبد لو عمل على ان يسخط مولاه سنة ويرضيه يوماً او شهراً لم يقبل ذلك منه ولم يحل عندك محل العبد الصالح دون ان يضمر طاعتك ونصحك فى كل الاوقات وعلى كل الحالات

فأن قلت اوليس قد يقيم الانسان على المعصية حيناً ثم يتوب فيقبل ذلك منه قلنا ان ذلك شيء يكون من الأنسان بغلبة له من الشهوات ونزوعه عنها من غير ان يقدره فى نفسه ويبنى امره عليه فيصفح الله عنه ويتفضل عليه بالمغفرة لمعرفته بضعف جوهره فأما من قدر امره على ان يعصى الله تعالى ما بداله ثم يتوب في آخر ذلك فأنما يحاول خديعة من لا ينخدع بأن يتسلف التلذذ فى العاجل ويعد بالتوبة في الآجل لعله لا يفي بما يعد من ذلك فأن النزوع عن الترفه والتلذذ آيس من معاناة التوبة ولا سيما عند الكبر وضعف البدن فأنه امر صعب فكان لا يؤمن على الأنسان ان يدافع التوبة حتى يرهقه الموت (او يعوقه عائق)

فيخرج من الدنيا غير تائب كما قد يكون على المرء دين الى اجل وهو يقدر على قضائه ولا يزال يدافع حتى يحل الأجل وقد نفد المال فيبقى الدين قائماً عليه . فكان خير الأشياء للأنسان ان يستر عنه مبلغ عمره فيكون طول عمره يترقب الموت فينكل عن المعاصي ويؤثر العمل الصالح .

فأن قلت ها هو الآن وقد ستر عنه مقدار حياته وصار يترقب الموت كل ساعة يقارف الفواحش وينتهك المحارم قلنا ان وجه التدبير في هذا الباب هو الذي جرى عليه الأمر فيه فأن كان الأنسان مع هذا لا يرعوى ولا ينصرف عن المساوى فأنما ذاك من مرحه وقساوة قلبه لا من خطأ التدبير كما ان الطبيب قد يصف للمريض ما ينتفع به فأن كان المريض مخالفاً للطبيب لا يعمل بما يأمره ولا ينتهى عما ينهاه عنه فلم ينتفع بصفته لم تكن الأساءة في ذلك للطبيب بل للمريض حين لم يقبل ذلك منه . ولئن كان الانسان مع ترقبه الموت كل ساعة لا يمتنع من المعاصي فأنه لو وثق بطول البقاء كان احرى ان يخرج الى الكبائر الفظيعة فترقبُ الموت على كل حال خير من الثقة بالبقاء .

ثم ان ترقب الموت وان كان صنف من الناس يلهون عنه ولا ينتفعون به فقد ينتفع به صنف آخر من الناس فينزعون عن المعاصي ويؤثرون العمل الصالح ويجودون بالأموال والعقد النفيسة في الصدقة على الفقراء والمساكين فلم يكن من العدل ان يحرم هؤلاء من الأنتفاع بهذه الخلة لتضييع اولئك حظهم منها

(فكر في الأحلام كيف دبر امرها) فمزج صادقها بكاذبها فانها لو كانت كلها تصدق كان الناس كلهم انبياء ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة بل كانت فضلاً لا معنى لها فصارت تصدق احيانا لينتفع بها الناس في مصلحة يهتدى بها او مضرة يتحرز منها وتكذب كثيراً لئلا يعتمد عليها كل الأعتماد .

فكر في هذه الأشياء التي تراها موجودة معدة في العالم من ارب الأنسان فالتراب للبناء والحديد للصناعات والخشب للسفن والحجارة للأرحاء والنحاس للأواني والفضة للمعاملة والجواهر الذخر والحبوب للغذاء والثمار للتفكه واللحوم للمآكل والطيور للتلذذ والأدوية للتصحح والدواب للحمولة والحطب للوقود والرماد للكلس والزبل للأرض وكم عسى ان يحصى المحصي من هذا وشبهه

افرأيت لو ان رجلاً دخل داراً فنظر الى خزائن مملوءة من كل ما يحتاج اليه الناس ورأى كل مافيها مجموعة معدة لأنسان معروف اكان يتوهم ان هذا يكون بالأهمال من غير عمد فكيف يستجيز قائل ان يقول هذا في العالم وما اعد فيه من الأشياء.

فكر في اشياء خلقت لمآرب الأنسان وما فيها من التدبير فأنه خلق الحب لطعامه وكلف طحنه وعجنه وخبزه وخلق له القطن والوبر لكسوته وكلف بندفه وغزله ونسجه وخلق له الشجر لفواكهه وكلف غرسه وسقيه والقيام عليه وخلقت العقاقير لأدويته وكلف لقطها وخلطها وصنعتها وكذلك تجد الأشياء على هذا المثال.

فانظر كيف كفى الخلقة التي لم تكن عنده فيها حيلة وترك عليه في كل شيء من الأشياء موضع الحركة لما له في ذلك من الصلاح لأنه لو كفي هذا كله حتى لا يكون له في الأشياء موضع شغل وعمل لما حملته الأرض اشراً وبطراً ولبلغ ذلك كله به الى ان يتعاطى اموراً فيها تلف نفسه ولو كفي الناس كل ما يحتاجون لما تهنوا بالعيش ولا وجدوا له لذة. الا ترى ان امرأ لو نزل بقوم فأقام حتى يكفى جميع ما يحتاج اليه من مطعم ومشرب وخدمة تبرم بالفراغ ونازعته نفسه الى التشاغل بشيء فكيف لو كان طول عمره يكفى لا يحتاج الى شيء.

فكان من صواب التدبير في هذه الاشياء التي خلقت للانسان ان يجعل له فيها موضع شغل لكيلا تبطره البطالة وليكفه الشغل عن تعاطي ما لا يناله ولا خير له فيه ان ناله.

قال ابن شبرا في حكمته رأس معاش الانسان الخبز والماء . وهذا كما قال ولكن انظر كيف دبر الامر فيهما فأن حاجة الانسان الى الماء اشد من حاجته الى الخبز وذلك ان صبره على الجوع اكثر من صبره على العطش والذي يحتاج اليه من الماء اكثر مما يحتاج اليه من الخبز فأنه يحتاج الى الماء لشربه ووضوءه وغسل ثيابه واوانيه وسقى انعامه وزروعه فجعل الماء مبذولا لا يشترى بثمن لتسقط عن الانسان المؤنة في طلبه وتكلفه وجعل الخبز مقدراً لا ينال الا بالحيلة والحركة ليكون للانسان في ذلك شغل يكفه عما يخرجه اليه الفراغ من الاشر والعبث .

اما ترى الصبي يدفع الى المؤدب وهو طفل لما يكامل ذهنه فيعلم ذلك ليشغل عن اللعب والعبث الذي ربما خشي عليه وعلى اهله المضرة العظيمة وهكذا الأنسان لو خلا من الشغل يخرج من العبث والأشر الى ما يعظم ضرره عليه وعلى من قرب منه واعتبر ذلك بمن نشأ في جدة ورفاهية العيش وما يخرجه اليه الترفه والكفاية ولو كان الأنسان لا يصيبه الم ولا وجع أكان يرتدع عن الفواحش ويتواضع لله ويعطف على الناس . الا ترى انه حين يعرض له وجع تخضع واستكان ورغب الى ربه في العافية وبسط يده بالصدقة فلو كان لا يألم من الضرب بم كان السلطان يعاقب الدعار ويذل العتاة المردة وبم كان الصبيان يتعلمون العلوم والصناعات وبم كان العبيد يذلون لاربابهم ويذعنون لطاعتهم افليس في هذا توبيخ للمعطلة الذين جحدوا التدبير والمنانية الذين نقموا الالم والوجع .

لو لم يلد من الحيوان الاذكور فقط او اناث فقط الم يكن سينقطع النسل وتبيد اجناس الحيوان فلم صار بعض الاولاد يأتي ذكرا وبعضها اناثا الا ليدوم التناسل ولا ينقطع .

لو رأيت تمثال انسان مصور في حائط فقال لك قائل أن هذا ظهر من تلقاء نفسه ها هنا لم يصنعه صانع الم تكن تستهزئ به فكيف ينكر هذا في تمثال كالخيال

ولا ينكره في الانسان الحي الناطق . لم صارت ابدان الحيوان وهي تغتذي ابداً لا تنمو ابداً بل تنتهي الى غاية من النمو ثم تقف لولا التدبير في ذلك فأن من التدبير الحكيم فيها ان يكون ابداً ان كل صنف منها على مقدار معلوم غير متفاوت في الكبر والصغر فصار ينمو حتى ينتهي الى غاياتها ثم يقف والغذاء مع ذلك قائم لا ينقطع ولو كانت تنمو نمواً دائماً لعظمت ابدانها واشتبهت مقاديرها حتى لا يكون لشيء منها حد معروف . ثم كانت اجسام الانس خاصة تستثقل عن المشي والحركة وتجفو عن الصناعات اللطيفة وتعظم المؤنة فيما يحتاج اليه الملبس والمضجع والتكفين فحسم هذا كله بأن جعلت تنمو حتى تنتهي الى مقاديرها فتقف عندها ولا تعدوها .

لم لا يتشابه الانسان واحداً بالآخر كما تتشابه الطير والوحش وغير ذلك فانك ترى السرب من الظباء او القطا تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر. وترى الناس مختلفة صورهم وخلقهم حتى لا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة . والعلة في ذلك ان الناس يحتاجون الى ان يتعارفوا بأعيانهم وحليتهم لما يجري بينهم من المعاملات وليس يجري بين البهايم مثل هذا فيحتاج الى معرفة كل واحد بعينه وحليته الا ترى ان التشابه في الطير والوحوش لا يضرها شيء وليس كذلك الانسان فأنه ربما تشابه التوأمان تشابها شديداً فتعظم المؤنة على الناس في معاملتهما حتى يعطى احدهما مال الآخر ويؤخذ احدهما بذنب الآخر. وقد يحدث مثل هذا في تشابه الاسماء فضلا عن تشابه الصور. فمن لطف هذه الدقايق التي لا تكاد تخطر بالبال حتى وقف بها على الصواب الامن وسعت حكمته كل شيء .

لم صار الرجل والمرأة اذا ادركا جميعا نبت لهما العانة ثم تنبت للرجل اللحية وتتخلف عن المرأة لولا التدبير في ذلك فأنه دبر ان يكون الرجل قيما ورقيبا

على المرأة وتكون المرأة عرساً دخولاً له .

اعطى الرجل اللحية لما له فيها من العز والجلالة والهيبة ومنعت المرأة ليبقى فيها نضارة الوجه والبهجة التي تشاكل المفاكهة والمباضعة . افلا ترى الخلقة كيف يتم لها الصواب في الاشياء فتعطي وتمنع على حسب الارب والمصلحة .

وصف الحكماء بأن الطبيعة لا تفعل شيئاً لغير معنى ولا تقصر عما فيه تمام الشيء في طبقته والمحنة تشهد له بذلك فمن اعطي الطبيعة هذه الحكمة والوقوف على حدود الاشياء فلا تجاوزة لها ولا تقصر عنها وهذا ما قد تعجز عنه العقول بعد طول التجارب . فأن اوجبت للطبيعة الحكمة والقدرة على مثل هذه الافعال فقد اقررت بما انكرت لان هذه هي صفة الخالق وان انكرت ان تكون هذه للطبيعة بدا وجه الحق يهتف بأن الفعل للخلاق العظيم الحكيم .

وقد كانت من القدماء طائفة انكرت العمد والتدبير في الاشياء وزعموا ان كونها بالعرض والاتفاق كمثل دياغوروس وافيقوروس واناس من الطبيعيين فكان مما احتجوا بها هذه الآيات التي تولد على مجرى الطبيعة كالانسان الذي يولد ناقصاً يداً او زائداً اصبعاً او يولد مشوهاً مبدل الخلق . قالوا فهذا دليل على ان كون الانسان ليس من تعمد ولا تقدير بل لعرض وكيف اتفق ان يكون .

فرد عليهم ارسطاطاليس وغيره من الفلاسفة فقالوا ان الذي يكون بالعرض والاتفاق انما هو شيء يأتي في الفرط مرة لاعراض تعرض الطبيعة فتزيلها على سبيلها وليس بمنزلة الامور الطبيعية الجارية على شكل واحد جرياناً دائماً متتابعاً ونحن نرى اصناف الحيوان تجري على اكثر ذلك على مثال ومنهاج واحد كالانسان يولد وله يدان ورجلان وخمس اصابع وغير ذلك مما عليه الجمهور من الناس . فأما ما يولد على خلاف ذلك فأنما هو لعلة تكون في الرحم او في المادة

التى منها ينشق الجنين كما قد يعرض فى الصناعات حتى تعمد الصانع الصواب فى صنعته فيعوق دون ذلك عائق من الفساد في الاداة او في الآلة التى يعمل بها الشئ وقد يحدث مثل ذلك فى اولاد الحيوان للاسباب التى وصفنا فيأتى الولد ناقصاً او زائداً او مشوها ويسلم اكثرها فيأتى سويا لا علة فيه فكما انه يحدث على بعض اعمال الصناعة لاعراض تعرض فيه ولا يجوز عليها اجمع الاهمال وعدم الصنعة. كذلك ما يحدث على بعض الافعال الطبيعية العايق يدخل عليه لا يوجب على جميعها ان يكون بالعرض والاتفاق. وقول القائل في الاشياء ان كونها بالعرض والاتفاق من قبل ان شيئاً منها يأتى على خلاف الطبيعة حتى لعرض يعرض له خطأ وجهل.

فأن قلت ولم صار هذا الحدث فى الاشياء قلت انه ليس كون الاشياء ايضاً باضطرار من الطبيعة حتى لا يمكن ان يكون سواه كما قال القائلون بل هو بتقدير وعمد من الخالق اذ جعل الطبيعة تجرى اكثر ذلك على مجرى منهاج معروف وتزول احيانا عن ذلك لاعراض تعرض لها فيستدل بذلك على انها مصرّفة مدبرة فقيرة الى ارادة الخالق وقدرته في بلوغ غايتها واتمام عملها.

اتخذ اناس هذه الآفات الحادثة في بعض الازمان كمثل الوبا واليرقان والبرد والجراد ذريعة الى جحود الخالق والتدبير. فيقال في جواب ذلك انه ان لم يكن خالق مدبر فلم لا يكون اكثر من هذا واعظم من ذلك ان تقع السماء على الارض وتهوى الارض فتذهب سفلا وتتخلف الشمس عن الطلوع اصلاً وتجف الانهار والعيون حتى لا يوجد ماء للشفة وتركد الريح حتى تختمز الاشياء وتفسد ويفيض ماء البحار على الارض فيغرقها وهذه الآفات التى ذكروا من الوبا والجراد وما اشبه ذلك ما بالها لا تدوم وتمتد حتى تجتاح كل ما فى العالم بل تحدث فى الاحايين

ثم لا تلبث ان ترفع. افلا ترى ان العالم يصان ويحفظ من تلك الآفات الجليلة التي ان حدث شيء عليه منها كان فيه بواره ويلدغ احيانا بهذه الآفات اليسيرة لتأديب الناس وتقويمهم ثم لا تترك هذه الآفات ان تدوم بل تكشف عنهم عند القنوط منهم فيكون وقوعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة .

قد تنكر المعطلة ايضاً ما انكرت المنانية من المكاره والمصائب التي تصيب الناس فكلاهما يقول ان كان للعالم خلاق رؤف رحيم فلم تحدث فيه هذه الامور المكروهة والقائل بهذا القول يذهب الى انه ينبغي ان يكون عيش الانسان في هذه الدنيا صافياً من كل كدر ولو كان هذا هكذا لقد كان الانسان سيخرج من الاشر والعتو الى ما يصلح له معه دين ولا دنيا كالذي ترى كثيراً من الامراء المترفين ومن نشأ في الجدة والامن يمرحون حتى ان احدهم ينسى نفسه انه بشر مربوب وان ضيرا يمسه او مكروها ينزل به وانه يجب عليه ان يرحم ضعيفا او يواسي فقيرا او يرثي لمبتلي او يتعطف على مكروب. فأذا عضته المكاره ووجد مضضها اتعظ وابصر كثيراً مما قد كان غافلا عنه ورجع الى كثير مما كان يجب عليه. والمنكرون لهذه الامور المؤذية بمنزلة الصبيان الذين يذمون الادوية المرة البشعة ويتسخطون المنع من الاطعمة الضارة ويتكرهون الادب والعمل ويحبون ان يفرغوا للهو والبطالة ويباحوا كل مطعم ومشرب ولا يعرفون ما تؤديهم اليه البطالة من سوء النشؤ والسيرة والعادة وما تعقبهم الاطعمة الضارة من الادواء والاسقام وما لهم في الادب من الصلاح وفي الادوية البشعة من المنفعة وان شاب ذلك بعض الكراهة. فأن قالوا ولم لم يكن الانسان معصوما حتى لا يحتاج الى تلديغه بهذه المكاره قلنا اذا كان يكون غير محمود على حسنة يأتيها ولا يستحق الثواب

عليها . فان قالوا وما كان يضره الا يكون محموداً على الحسنات مستحقاً للثواب بعد ان يصير الى غاية النعم واللذة قلت اعرضوا على امرئ صحيح الجسم والعقل ان يجلس منعما ويكفى كل ما يحتاج اليه بلا سعى واستحقاق فانظروا هل تقبل نفسه ذلك بل ستجدونه بالقليل مماينالة بالسعى والحركة اشدسروراً واغتباطاً منه بالكثير مما يناله بلا استحقاق. وكذلك نعيم الآخرة انما يكون لاهله بأن ينالوه بالسعى والاستحقاق له والنعمة على الانسان مضاعفة بان فى هذا الباب اعدله الثواب الجزيل على سعيه فى هذه الدنيا وجعل له السبيل الى ان ينال ذلك بسعى واستحقاق فيكمل له السرور والاغتباط بما يناله .

فأن قالوا اوليس قد يكون من الناس من يركن الى ما نال من خير وان كان لا يستحقه فما الحجة فى منع ذلك من رضي ان ينال نعيم الآخرة على هذه الجهة (قلنا) ان هذا باب لو فتح للناس لخرجوا الى غاية الكلب والضراوة على الفواحش وانتهاك المحارم فمن كان يكف نفسه عن فاحشة او يتحمل المشقة في باب من ابواب البر لو وثق انه صائر الى النعيم لا محالة او من كان يأمن على نفسه واهله وماله لو امن الناس والحساب والعقاب فكان ضرر هذا البـاب سينال الناس فى هذه الدنيا قبل الآخرة ثم كان يستوى الأبرار والفجار في الدنيا والآخرة فيكون في ذلك تعطيلا للعدل والحكمة معاً وموضعا للطعن على التدبير بخلاف الصواب ووضع الأمور في غير مواضعها .

وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التى تصيب الناس تعم البر والفاجر ايضاً ويبتلى البر ويسلم منها الفاجر فيقولون كيف يجوز هذا فى التدبير من الحكيم وما الحجة فى ذلك . فنقول في جواب ذلك ان الآفات وان كانت تنال الصالح والطالح جميعا بلا تمييز فأن الله تعالى يجعل في ذلك صلاحاً للصنفين كليهما .

اما الصالحون فلأن الذى لمسهم من هذا يذكرهم نعم ربهم عندهم في سالف ايامهم فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر . واما الطالحون فأن مثل هذا اذا نالهم كسر شرتهم وردعهم عن المعاصي وعن الفواحش . وكذلك يجعل لمن سلم منها من الصنفين صلاحاً في ذلك .

اما الأبرار فأنهم يغتبطون بما هم عليه من البر والصلاح . واما الفجار فأنهم يعرفون رحمة ربهم وتطوله عليهم بالسلامة من غير استحقاق فيحضهم ذلك على الرأفة بالناس والصفح عمن اساء اليهم .

ولعلك تقول اترك هذا في الآفات التى تصيب الناس فى اموالهم ارأيت ما يبتلون به في ابدانهم فيكون فيه تلفهم كمثل الحريق والسيل والخسف ما الحجة في ذلك فنقول ان الله تعالى يجعل في هذا ايضاً صلاحاً للصنفين جميعا اما الأبرار فلما لهم فى مفارقة هذه الدار من الراحة من تكاليفها والنجاة من مكارهها . واما الفجار فلما لهم في ذلك من تمحيص اوزارهم وحسمهم عن الأزدياد منها .

وجملة القول ان الخالق تعالى يصرف هذه الأمور كلها الى الخير والمنفعة فكما انه اذا قلعت الريح شجرة او قصفت نخلة اخذها الصانع الرفيق فاستعملها الى ضروب المنافع كذلك يفعل المدبر الحكيم في الآفات التى تنزل بالناس في ابدانهم واموالهم فيصرفها اجمع الى الخير والمنفعة .

فأن قلت ولم يحدث على الناس مثل هذه الاحداث قلنا لكيلا يركنوا الى طول السلامة فيغلو الفاجر في الركون الى المعاصي ويفتر الصالح عن الأجتهاد في البر فأن هذين الأمرين جميعا يغلبان على الناس فى حال الخفض والدعة وهذه الحوادث التى تحدث عليهم تردعهم وتنبههم على ما فيه رشدهم ولو خلوا منها لغلوا في الطغيان والمعصية كما غلوا في اول الزمان حتى وجب عليهم البوار بالطوفان وتطهير الأرض منهم .

ومما ينقمه الجاحدون للتدبير في الموت والفناء فأنهم يذهبون الى انه ينبغي ان يكون الناس مخلدين في هذه الدنيا مبرئين من الآفات فقد ينبغي ان نسوق هذا القول الى غايته فنظر ما محصوله افرأيت لو كان كل رجل دخل العالم ويدخله يبقون فلا يموت احد منهم الم تكن الأرض ستضيق بهم حتى تعوزهم المساكن والمزارع والمعايش افليس لو كانوا لا يفنيهم اولاً فأولاً يتنافسون في المساكن والمعاش وحتى تنشب بينهم في ذلك الحروب وتسفك فيه الدماء وكيف تكون حالتهم لو كانوا يولدون ولا يموتون. هذا الى ما كان سيغلب عليهم من الحرص والشره وقساوة القلوب فأنهم لو وثقوا بأنهم لا يموتون لما قنع احد بشيء يناله ولا يفرح احد عن شيء يناله ولا يفرح عن شيء سيناله . ولا يسألون عن شيء يحدث عليهم ثم كانوا يملون الحياة وكل شيء من امور الدنيا كما قد يمل الحياة من طال عمره حتى يتمنى الموت والراحة من الدنيا .

فأن قالوا انه كان ينبغي ان ترفع عنهم المضار والأوصاب حتى لا يتمنوا الموت فلا يتوقوا اليه فقد وصفنا ما كان هذا مخرجهم اليه من العتو والأشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدين والدنيا .

فأن قالوا إنه كان ينبغي ان لا يتوالدوا كي لا يضيق عليهم المساكن والمعايش قلنا اذاً كانوا يحرم اكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع بنعم الله ومواهبه في الدارين جميعا اذا لم يدخل العالم الاقرن واحد لا يتناسلون ولا يتوالدون .

فأن قالوا كان يخلق في ذلك القرن الواحد من الناس مثل ما خلق ويخلق الى انقضاء العالم رجع الأمر الى ما ذكرنا من ضيق المساكن والمعاش عنهم ثم لو كانوا لا يتوالدون ولا يتناسلون ذهب موضع الأنسان بالقرابات وذوي الارحام والانتصار بهم عند الشدائد وموضع تربية الاولاد والسرور بهم ففي هذا دليل

على ان ما تذهب اليه الا وهام سوى ما جرى به التدبير خطأً وسفال من الرأي و القول.
ولعل طاعناً يطعن على التدبير من جهة اخرى فيقول كيف يكون ههنا تدبير ونحن نرى الناس في هذه الدنيا من عزيز وضعيف فالقوي يظلم ويغصب والضعيف يُظلم ويسام الخسف والصالح فقير مبتلى والفاسق معافى موسع عليه فمن ركب فاحشة وانتهك محرما لم يعاجل بالعقوبة فلو كان فى هذا العالم تدبير لجرت الامور على القياس القائم وكان الصالح هو المرزوق والطالح هو المحروم وكان القوي يمنع من ظلم الضعيف والمنتهك المحارم يعاجل . فنقول في جواب ذلك ان هذا لو كان هكذا لذهب موضع الاختيار والتجربة التي فضل بها الانسان وحمل النفس على البر والعمل الصالح احتساباً للثواب وثقة بما وعد الله منه ولصار الناس بمنزلة الدواب التي تساس بالعصا والعلف ويلمع لها لكل واحد منها ساعة فساعة فتستقيم على ذلك ولم يكن احد يعمل على يقين بثواب او عقاب حتى كان يخرجهم من حد الأنسية الى حد البهايم التى لا تعرف ما غاب ولا تعمل الا على الحاضر وكان يحدث منها ايضاً ان يكون الصالح انما يعمل الصالحات للرزق والسعة فى هذه الدنيا ويكون الممتنع من الظلم والفواحش انما يعفو عن ذلك لترقب عقوبة نازلة تنزل به من ساعة حتى تكون افعال الناس كلها تجرى على الأمر الحاضر لا يشوبها شيء من اليقين بما عند الله ولا تستحق ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها مع ان هذه الامور التى ذكرها الغنا والفقر والعافية والبلا ليست بجارية على افعال القياس ابداً بل قد تجرى احياناً على القياس والأمر المفهوم فقد نرى كثيراً من الناس الصالحين يرزقون المال لضرب من التقدير ولكن لا يسبق الى قلوب الناس ان الفساق هم المرزوقون والأبرار هم المحرومون فيؤثرون الفسق على الصلاح ونرى كثيراً من الفساق يعاجلون بالعقوبة اذا تفاقم

طغيانهم وعظم ضررهم على الناس وعلى انفسهم كما عوجل فرعون بالغرق وبنو اسرائيل بالتيه وبختنصر بالقتل. وان امهل بعض الأشرار بالعقوبة وأخر بعض الأخيار بالثواب الى الدار الآخرة لأسباب تخفى على العباد لم يكن هذا مما يبطل التدبير فأن مثل هذا قد يكون من ملوك الأرض ايضاً فلا يبطل تدبيرهم بل يكون تأخيرهم ما اخروا وتعجيلهم ما عجلوا داخلاً في صواب الرأي والتدبير.

ثم نقول ايضاً انه كان القياس يوجد والشواهد تشهد بأن للأشياء خالقاً حكيما قادراً فما يمنعه ان يدبر خلقه فأنه لا يصح في القياس ان يكون الصانع يهمل صنعته الا لأحدى خلال ثلاث اما عجز واما جهل واما شرارة وكل هذا محال في صفة الخالق القديم تعالى ذكره وذلك ان العاجز لا يستطيع ان يأتي بمثل هذه الخلائق العجيبة الجليلة والجاهل لا يهتدى لما فيها من الصواب والحكمة والشرير لا يتطول بخلقها وانشائها .

فاذا كان هذا هكذا وجب ان يكون الخالق لهذه الخلائق يدبرها لا محالة وان كنا لاندرك كنه ذلك التدبير ومجاريه فأن كثيراً من تدبير الملوك ايضاً لا يفهمه العامة ولا تعرف اسبابه لأنه لا يعراف داخلة امر الملوك واسرارهم فأذا عرف سببه وجد صواباً قائماً على القياس والمحنة

لو شككت في قوة بعض الادوية والأطعمة فتبين لك من وجهين او ثلاثة انه حار او بارد الم تكن تقضي عليه بذلك وتنفي الشك فيه عن نفسك فابالك لا تقضي على العالم بالخالق والتدبير مع هذه الشواهد الكثيرة واكثر منها مالا يحصى كثرة. لو كان نصف ما في العالم مشكلا صوابه لما كان من حزم الرأي وسنة الادب ان تقضي على العالم بالأهمال لانه لو كان في النصف الآخر وما يظهر من فيه الصواب والاتقان ما يزع الوهم عن التسرع الى هذه القضية فكيف

وكل ما فيه اذا فتش وجد على غاية الصواب حتى انه لا يخطر بالبال شيء الا وجد ما عليه الخلقة اصح واصوب منه .

اعلمت ما اسم العالم بلسان اليونانية فأن اسمه جارى المعروف باليونانية قُوسموس وتفسير قوسموس الزينة وكان المسمى له بهذا الاسم فيما يزعمون فيثاغوروس الفيلسوف ثم جرى عليه الفلاسفة والناس من بعد .

افكان الحكماء والفلاسفة يسمونه بهذا الاسم الا لما رأوا فيه من التقدير والنظام مع انهم لم يرضوا ان يسموه تقديراً ونظاماً حتى سموه زينة ليخبروا انه مع ما هو عليه من الصواب والأتقان في غاية الحسن والبهاء .

العجب من قوم لا يقضون على صناعة الطب بالخطأ وهم يرون الطبيب يخطئ ويقضون على العالم بالأهمال ولا يرون شيئاً مهملاً . لا تتعجب من الجلف الجافى (دوسى) حين جهل موضع الحكمة فى الخلق حتى ارسل لسانه بالذم له ولكن تعجب من المخذول (مانى) الذى ادعى انه اوتي علم الأسرار حيث عمي عن دلائل الحكمة في الخلق حتى نسبه الى الخطأ ونسب خالقه الى الجهل تبارك وتعالى الحكيم الكريم .

واعجب من هذين جميعا المعطلة الذين راموا ان يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل فلما اعوزهم ذلك خرجوا الى الجحود والتكذيب قالوا ولم لا يدركه العقل قلنا لأنه فوق مرتبة العقل كما لا يدرك البصر ما هو فوق مرتبته . فأنك لو رأيت حجرا يرتفع في الهواء لعلمت ان راميا رمى به وكان الذي ادرك البصر من ذلك ذهاب الحجر علوا فأما علمك ان راميا رمى به فليس من قبل البصر بل من قبل العقل لأن العقل هو الذى يميز فيعلم ان الحجر لا يذهب علوا من تلقاء نفسه افلا ترى كيف وقف البصر على حده فلم يتجاوزه فكذلك يقف

العقل على حده من معرفة الخالق فلا يعدوه .

قالوا فلسنا نعقله اذاً قلنا بلى عقل اقرار وليس عقل احاطة كما قد يعلم الانسان ان فيه نفسا وهو لا يعاينها ولا يدركها بحاسة من الحواس ومن امثال ذلك ايضاً النقطة التي لا جزء لها فأنها تجب في العقل بأضطرار من قبل انه لا بد من ان يكون بدء الخط من نقطة ولا يمكن ان تظهر للحس لأن النقطة الواقعة تحت الحس متجزئة لا محالة . وكذلك يقول اصحاب علم الهندسة ان المثلثة الصحيحة هي التي يوجبها القياس باضطرار فأما المخطوطية فالخطوط الواقع عليها الحس فلا يخلو من ان يدخلها شيء من الخلل وان اجتهد مجتهد في اقامتها . وعلى حسب هذا نقول ان العقل يعرف الخالق من جهة العبرة والدلالة لا من جهة الحس والأحاطة وبالجملة انه يعرفه من جهة ما يوجب عليه الأقرار به ولا يعرفه من جهة ما يوجب الأحاطة بصفته .

قالوا فكيف يكلف العبد الضعيف معرفته والعقل اللطيف لا يحيط به (قلنا) انما يكلف العباد من ذلك ما في طاقتهم ان يبلغوه وهو ان يوقنوا به ويقفوا عند امرهم ولم يكلفوا الاحاطة به وبصفاته كما ان الملك لا يكلف رعيته ان يعلموا اطويل هو ام قصير وابيض هو ام اسمر انما يكلفهم الاذعان لسلطانه والانتهاء الى امره . الا ترى ان رجلاً لو اتى باب ملك فقال اعرض عليّ نفسك حتى اتقصى معرفتك والا لم اسمع لك كان قد احل بنفسه العقوبة فهكذا القائل انه لا يقر بالخالق حتى يحيط بكنهه متعرض لسخطه .

قالوا افليس قد نصفه فنقول هو العزيز الحكيم الجواد قلنا كل هذا صفات اقرار واعتراف وتثبيت وليست بصفات احاطة فأنا نعلم انه حكيم ولا نحيط بكنه ذلك منه . وكذلك قدير وجواد وسائر صفاته كما قد نرى السماء ولا ندري ما جوهرها ونرى البحر ولا ندري اين منتهاه بل هو فوق هذه الامثال ما لانهاية له

لأن الامثال كلها تقصر عنه ولكنها تقود العقل الى معرفته .

قالوا فلم تختلف فيه قلنا لقصر الاوهام عن مدى عظمته وتمديها اقرارها في طلب معرفته وانما تروم الاحاطة به وهي تعجز عن ذلك فيما دونه .

فن ذلك هذه الشمس التي نراها تطلع على العالم كل يوم ولا نقف على حقيقة امرها ولذلك كثرت الاقاويل فيها واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها فقال اركمندروس هي فلك اجوف مملوء ناراً له فم يجيش بهذا الوهج والشعاع وقال كسيومانيس هو اجتماع اجزاء نارية يدفعها البخار الرطب . وقال اركسمانيس هو سحابة ملتهبة . وقال فيلاغوس الفيثاغورى هو جسم زجاجي يقبل نارية العالم ويرسل عليها شعاعه وقال الاسطوانقون هو جوهر لطيف يتصعد من البحر وقال افلاطون هو اجزاء كثيرة مجتمعة من النار وقال ارسطاطاليس هو من جوهر خامس سوى الجواهر الاربعة .

ثم اختلفوا في شكلها ايضاً فقال اركسمانيس هو بمنزلة صفيحة عريضة وقال الاسطوانقون هي كالكرة المدحرجة وقال ارسطاطاليس مثل ذلك .

وكذلك اختلفوا في مقدارها فزعم انكسمندوس انها مثل الارض سواء . وقال انكسيمانس بل هي اقل من ذلك . وقال انكساغورس هي اعظم من الجزيرة العظيمة وقال ابرقليطوس هي مقدار قدم الانسان وقال اصحاب الهندسة هي اضعاف مائة وسبعين مرة من الارض .

ففي اختلاف هذه الاقاويل منهم في الشمس التي يقع عليها البصر ويدركها الحس دليل على انهم لم يقفوا على الحقيقة من امرها . فاذا كانت هذه الشمس التي يقع عليها البصر ويدركها الحس قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها منكم فكم فبالحري ما لطف عن الحس واستتر عن الوهم .

قالوا ولم استتر قلنا انه لم يستتر بحيلة تخلص اليها كمن يحتجب عن الناس بالابواب والستور انما معنى قولنا انه استتر انه لطف عن مدى ما يبلغه الاوهام كما لطفت النفس وارتفعت عن ارتفاعها بالبصر .

فأن قلت لم لطف وتعالى كان ذلك خطأً من القول لانه لايليق بالذى هو علة كل شئ الا ان يكون فائقاً لكل شئ متعاليا عن كل شئ . قلنا ان الذى تطلب معرفته من الاشياء اربعة اوجه اولها ان ينظر اموجود هوام ليس موجوداً والثاني ان يعرف ما هو في ذاته وجوهره والثالث ان ينظر كيف هو وما صفته والرابع لماذا ولأية علة فليس في هذه الوجوه شئ يمكن المخلوق ان يعرفه من الخالق حق معرفته خلا انه موجود فقط فأما ما هو وكيف هو فيمتنع عليه كنهه وكمال المعرفة به . واما لماذا فهو ساقط في صفة الخالق لانه علة كل شئ وليس شئ بعلته . ثم ليس علم الانسان بأنه موجود وجب له ان يعلم ما هو وكيف هو كما ان علمه بوجود النفس لا يوجب له ان يعلم ما هي وكيف هي وكذلك الامور الروحانية اللطيفة .

قالوا افرطتم فيما تصفون من قصور العلم عنه حتى كأنه غير معلوم قلنا كذلك هو من جهة اذا رام العقل معرفة كنهه والاحاطة به وهو من جهة اخري اقرب من كل قريب اذا استدل عليه بالدلائل الشافية . وقد قال ارسطاطاليس في الجواب شبيها بهذا القول في كتابه الذى سماه مابعد الطبيعة فأنه وصفه بهذه الصفة فقال هو قريب بعيد فأنه من جهة كالواضح لايخفى على احد ومن جهة كالغامض لا يدركه احد فكذلك العقل ايضاً ظاهر شواهده ومستتر في ذاته فلا ينكر احد ان يقول في صانعه وبارئه نحو ماقيل فيه .

فهذا منتهى جميع مافي هذا الكتاب من الدلائل على الخلق والتدبير وهو قليل

من كثير وجزء من كل فأما العلم الكامل فعند الخلاق العليم الحكيم له الشكر كثيراً دائماً مباركاً فيه تم الكتاب

قال كاتبه فى آخره ما نصه

وهذا حين اتينا على آخر كتاب الدلائل والاعتبار تأليف ابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ والحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على رسوله محمد وآله الطيبين الطاهرين وكان الفراغ من رقه في شهر ربيع الآخر سنة ثلاثة وعشرين بعد الالاف اه

تم بتوفيقه تعالى طبع هذا الكتاب الجليل الذى يرشدك الى حكمته تعالى في هذه المخلوقات لتتدبر معنى قوله فى الكتاب المبين (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) وتعي معني قول الشاعر

وفي كل شيء له آية ☆ تدل على انه واحد

وقد عثرت على نسخته فى مكتبة المدرسة العثمانية في مدينة حلب فاستنسختها بخطى ولم آل جهداً فى تصحيحه وكان تمام طبعه فى التاسع والعشرين من شهر شعبان سنة ١٣٤٦ وبالله التوفيق

ناشره

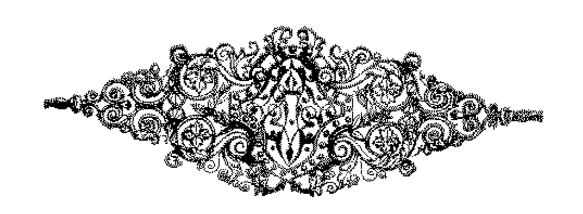
محمد راغب

الطباخ

من ٧٢ الى آخر الكتاب ناقص ومصحح جدا

فهرس كتاب الدلائل والأعتبار على الخلق والتدبير للأمام ابي عثمان الجاحظ

صحيفة



بقية المطبوع على نفقة ناشر هذا الكتاب

كتاب (الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير) تأليف ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ وثمنه نصف مجيدي او اربعة قروش مصرية

وكتاب (مشكاة الأنوار فيما يروى عن الله سبحانه من الاخبار) تأليف الأمام العارف بالله تعالى الشيخ محي الدين محمد بن على بن العربي الطائي

ويليه (الاحاديث القدسية الاربعينية) للعلامة ملا علي القاري وثمنه سبعه ونصف دارجة

وتحت الطبع

كتاب (النجوم الشارقات) في ذكر بعض الصنايع المحتاج اليها في علم الميقات تأليف الشيخ محمد بن ابى الخير الحسنى الدمشقي المتوفى في حدود الألف وهو كتاب نفيس في صناعات هامة في عمل الأحبار والألوان واستخراج بعض الادهان وفي حل اللك والعصفر والذهب والفضة لأجل الكتابة وفي صباغ العظم والعاج وفي لحام الذهب والفضة والنحاس وتليين الحديد اليابس وفي ذكر اشياء يطبخ بها الحديد ويعمل منها السيوف وفي جلاء الحديد وتحضيره وبيان الجيد من حجر المغناطيس وفي عمل الإبرة وفي صنعة تفرية الورق وصبغه في اي لون كان وفي صنعة الغرا المتخذ من السمك وفي عمل ما يحتاج اليه من دوائر المعدل ودوائر الميول والعروض والأكر وغير ذلك من الآلات الفلكية الى غير ذلك من الصناعات المفيدة

وكتاب (فضل الخيل) للامام الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطى المتوفى سنة ٧٠٥ ويليه كتاب (رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد) تأليف الشيخ محمد ابن محمد البخشى الحلبي المتوفى سنة ١٠٩٨

وينتهى طبعها جميعها ان شاء الله تعالى في شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٦ وشهر حزيران سنة ١٩٢٨

المطبوع من مؤلفات ناشر هذا الكتاب في مطبعته العلمية بحلب

(اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء)
وهو تاريخ مطول في سبعة مجلدات الثلاثة
الاول في ذكر من ملكها من الملوك
وحكمها من الأمراء من حين الفتح
الأسلامي الى سنة ١٣٢٥ هجرية
والأربعة الباقية في تراجم اعيانها من الأمراء
والمحدثين والفقهاء والادباء والوجهاء الخ
من القرن الثاني الى سنة ١٣٤٥ هجرية
ومجموع الأجزاء في ٤٠٣٥ صحيفة وثمن
كل جزء غير مجلد ثلاثة مجيديات .

(عظة الأبناء بتاريخ الأنبياء) كتاب مدرسي
اعتمدنا فيه على تأييد الحوادث التي
اوردناها بالآيات القرآنية وهو في ٦٠
صحيفة وثمنه ١٠ قروش دارجة يحسم
لطالب الكمية عشرون في المئة .

(المطالب العلية في الدروس الدينية)
ثلاثة كتب متسلسلة سهلة المأخذ جداً
القسم الأول في ٢٢ صحيفة وثمنه ٥
قروش والثاني في ٣١ صحيفة وثمنه ٦ وربع
والثالث في ٧٥ صحيفة وفيه رسم الحرم
المكي وجبل عرفات والحجاج على الجبل
ومنى والمقيم وثمنه ١٢ قرشاً ونصف قرش
رائجة يحسم لطالب الكمية كما سبق .

(تمرين الطلاب في صناعة الأعراب)
رسالة في ١٦ صحيفة تسهل على المبتدئين
كيفية الأعراب وتعلمه في وقت قريب
وثمنها قرشان ونصف .

المطبوع على نفقته من الكتب

(القرب في فضل العرب) للحافظ العراقي
في (١٦) صحيفة ثمنه قرش وربع

(بيان السنة والجماعة) المعروف بعقيدة
الطحاوي للأمام ابي جعفر الطحاوي
هو كتاب صغير الحجم كثير العلم سهل
العبارة جداً ثمنه قرشان ونصف

(منظومة اللوامع الضيائية في نظم السراجية)
في علم الفرائض للشيخ عبدالله الميقاتي
الحلبي المتوفي سنة ١٢٢٣ ثمنها ثلاثة
قروش وثلاثون باره دارجة

(كتاب الطب النبوي) للأمام ابن
قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ وهو في
٢٧٩ صحيفة وثمنه مجيدي ونصف
في البلاد السورية و ١٢ قرشاً مصرياً
في البلاد المصرية

(كتاب الأعتبار في الناسخ والمنسوخ من
الآثار) للحافظ الحازمي المتوفي سنة ٥٨٤
وهو في ٢٦٠ صحيفة وثمنه كسابقه .